

8

العراقيون تحت الاحتلال

«لا بد أن نخرج من العراق! لا بد أن نسافر! لا بد أن نرى أمريكا! هل يمكن أن تعطينا أملاً؟».

وقفت شابة اسمها أسيل هي وزميلاتها في العمل في طريقي ذات يوم في مدخل حرم جامعة بغداد. كانت أسيل مبرمجة حاسوب جميلة شاحبة الوجه في الثامنة والعشرين من عمرها. بدا حجابها ذو اللون الكريم متناقضاً مع حيويتها، والحقيقة أنه كان مجرد زي: كانت ترتديه؛ لتحمي نفسها من القتل على يد الأصوليين. قالت أسيل: «إنهم يتحدثون باسم الله، وقد كانوا في السابق يتحدثون باسم صدام». كان في حياة أسيل كثير من المخاوف. كانت خائفة من المختطفين: فقد اختطفت مجموعة منهم صديقتها، بينما كانت تنزل من الحافلة، بينما استطاعت أسيل الهرب بصعوبة. وكانت خائفة من جيرانها الذين هدّدوا بإيذائها إذا قامت بالتقاط صورة أخرى للجنود الأمريكيين. وكانت خائفة من المرأة التي كانت تدير مكتبها، وهي بعثة قديمة، كانت ترتدي زياً عسكرياً وتضع سلاحاً على جنبها في العمل، ولا تزال تعلق ثلاث صور لصدام في إطارات على الجدران. كانت أسيل تشتكي من أن د. سامي مظفر، رئيس الجامعة الجديد، كان أضعف من أن يتخلص من البعثيين، إذ مازالوا يسيطرون على الجامعة.

قالت أسيل بينما كنا نتحدّث في مكتبها: «هل تشعر بالخطر الذي أشعر به هنا؟»، أشعر أنني أعيش في سجن بعد التحرير! أريد أن أرى العالم، أريد أن أتعلم المزيد، أريد أن أشعر أنني أحصل على شيء لحياتي. حين تزور بلاداً أخرى، فهذا شيء بسيط يجعلك تشعر بأنك حرّ. هذا ما فقدته في حياتي. لا يزال الخطر في الطرقات. في هذه الغرفة، بالتحديد في هذه الغرفة».

دخلت مديرة المكتب البعثية ونظرت، وقالت لأسيل: إنه عليّ أن أغادر.

همست أسيل: «نحن في سجن هنا، لست حرة».

عرضت عليها أن أوصلها إلى المنزل. كانت تعيش مع والديها وشقيقتها وخالتها الذي جنّ بعد السجن والتعذيب. كان بيتهم المتواضع، في حي فارغ في منطقة تحت الإنشاء شرق بغداد، يشوي في ضوء الظهيرة الأصفر العنيد. كانت الكهرباء مقطوعة، ولما كان الهاتف لم يكن يعمل، لم تستطع أسيل أن تخبر أمها؛ لذا قدّمت العائلة لي طبقاً بسيطاً من الأرز والفاصولياء في الغرفة المظلمة. كانت والدة أسيل قد كتبت على أحد الجدران آية قرآنية بالطباشير في أثناء الحرب، دعاء للسلامة يقرؤه أفراد الأسرة معاً. وعلى جدار آخر، كانت هناك صورة لوالدي الأم، من عام 1948، رجل ذو شارب صغير، وامرأة تضع أحمر شفاه ممّاعاً.

قال والد أسيل: «في العهد الملكي، كان الناس أكثر حداثة من الآن»، ووالد أسيل كان مهندساً معمارياً في وزارة الإعلام، قد اقترب من سن التقاعد. في عام 1965، درس في مانشستر، إنجلترا، لكن العائلة تنتمي الآن إلى الطبقة الوسطى التي سحقتها عقدان من الحروب والحصار. في لحظة يائسة جداً عام 1993، باعت أمها كل ما كانت تملك من ذهب بسعر قليل. قبل الحرب كان راتب أسيل ستة دولارات في الشهر، وهذا المبلغ لم يكن يكفي لشراء قميص. كانت العائلة تعيش مع أقارب والدها في الأدهمية، الحي الذي تسكنه الطبقة الوسطى على نهر دجلة، وكان المركز التاريخي للقوميين العرب يعود إلى طبقة الضباط في أواخر أيام الإمبراطورية العثمانية. قبل وصول الأمريكيين بأشهر قليلة، طرد شقيق والدها البعثي عائلة أسيل من منزله في الأدهمية، بعد أن علم أنهم لا يدعمون نظام صدام. في بيتهم الجديد، كانت أسيل تبكي وهي تشاهد الحرب على شاشة التلفاز، واقتحام فرقة المشاة الثالثة لبغداد، وكانت انفجارات القنابل في الخارج تشجعها. قالت أسيل: «ظننا أن الجميع سيكونون سعداء. لكن الأمر لم يكن كذلك».

دعمت عائلة أسيل الأمريكيين بشكل عاطفي. وإذا كان هذا احتلالاً، فقد كانت تريد أن تكون تحت الاحتلال. كان أفراد العائلة يجلسون معاً كل سبت يستمعون إلى خطاب بريمر

الأسبوعي، قالت أسيل: «أشعر أنه قريب جداً، حتى طريقته، تعجبني، إنه رجل بسيط». ارتفع راتبها إلى مئة وعشرين دولاراً شهرياً، كما وظّف أخوها مترجماً، لكن أسباب تعاطف أسيل كانت تزداد عمقاً. وقد أرتتي نسخة من الرسالة التي كانت قد أرسلتها إلى الرئيس بوش عن طريق جندي أمريكي دَهْشُ. كتبت أسيل: «سيدي الرئيس، لقد كنت صادقاً معنا، وفعلت كل ما قلت: إنك ستفعله. إننا شعب عانى الكثير من الخداع، بسياستك نرى مستقبل بلادنا وأنه سيزدهر. أمل أن تعود الأمور لطبيعتها قريباً وأن تزور العراق وتلقى حفلة ترحاب عظيمة».

قال والد أسيل: «على الأمريكيين تغيير المنطقة، ليس عن طريق الحرب، بل عن طريق العراق. إذا رأى الشعب الإيراني ما حدث في العراق، وإذا تقدّمنا بالحرية والحرية المرفهة، فإنهم سيفعلون الشيء ذاته».

نزعت أسيل الحجاب، وكان شعرها الطويل المصبوغ بالحناء مجدولاً. أخرجت مجموعتها الكبيرة من الأفلام الأمريكية (كانت قد تعلّمت اللغة الإنكليزية من فيلم نيكول كيدمان (الطاحونة الحمراء) Moulin Rouge وفيلم شارون ستون (السريع والميت) The Quick and the Dead قالت أسيل: «أعتقد أننا بحاجة إلى وقت، وقت طويل جداً؛ لصنع رابط بين الحضارتين. أعني لنجعل أنفسنا متحضّرين».

جلست أسيل على الأريكة بين والديها ذوي الوجهين الحزينين، وتحدّثت بحماس عن مستقبلها. «دائماً أقول لأمي: لقد خسرت حياتي. وتقول لي: لا، أنت شابة، مازال أمامك وقت. وأقول: ربما، ربما الآن، سأغتنم ما بقي من عمري؛ لأرى العالم». وتابعت: «أريد أن أغادر بغداد، أريد أن أكون حرة؛ لأفعل ما أشاء. فقط لأحسّن نفسي، لأطوّر تفكيري وطريقة حياتي. أريد أن أقابل أشخاصاً من بلاد مختلفة، وأعرف كيف يعيشون، وماذا يفعلون، وبماذا يؤمنون».

كانت أمها على وشك البكاء، فقد كان والداها خائفين من أن تغادر العراق. وضعت أسيل ذراعها حول أمها، ولمست يد أبيها، وقالت: «إنه مؤمن بي».

كانوا من المسلمين الشيعة، لكن في طريق العودة من الجامعة مُحت أسيل إلى سرّ يتعلق بماضيهم. بعد تناول الغداء، حين ذهبت إلى المطبخ الضيّق لصنع الشاي، تبعتها، وبدأت أفتح الموضوع. حوّلت أسيل عينيها بعيداً: كان والدها يقف في الممرّ، ويراقبنا عن قرب، قالت لي: «لا أستطيع الحديث عن ذلك، يقول والدي: إنه قد مضى عليه وقت طويل، لنُدع هذا الموضوع. نحن نعيش هكذا منذ وقت طويل».

وحين نهضت في نهاية مدة العصر لأذهب عرضت علي العائلة أدواتها الفضيّة الموروثة. فرفضت قائلاً: إن الهدايا ستصادر على الحدود الأردنية. في الخارج كان الخال المجنون يسرع وفي يده كأس. كنت أفكر كم تبدو هذه العائلة منعزلة. لم يكن لديهم حزب سياسي أو ميليشيا دينية، أو آية الله، أو شيخ عشيرة؛ لم يكن لديهم إلا الأمريكيون الذين لا يعلمون بوجودهم. لم يسبق لأسيل أن تحدّثت مع شخص غريب قبل أن تلتقيني في ذلك الصباح. كانت تريد السفر، لكنها كانت خائفة جداً من الذهاب إلى المدينة، وكانت ترسل طلباً عن طريق البريد الإلكتروني من مقهى الإنترنت. كان ضغط اشتياقها يملأ الغرفة.

وعند الباب، ابتسمت أسيل قائلة: هل تعتقد أن أحلامي ستتحقق؟

عدت إلى العراق عدّة مرات في أثناء سنة الاحتلال، وكان في ذهني دائماً رؤية أسيل. أصبح حال أحلامها دليلاً / مؤشراً لي على حال رؤية أمريكا للعراق. كانت أسيل من أكثر المؤيدين حماساً، ولم تفقد إيمانها قط. ومع الوقت تحسّن الوضع المالي للعائلة، وبدؤوا يعكسون عشرين عاماً من الانحدار ويصعدون عائدين نحو راحة الطبقة الوسطى. كما سمح لهم راتب أخيها الذي كان يحصل عليه من مقال كبير ببناء منزل جديد من طابقين في المساحة الضيقة بين بيتهم القديم وبين جدار الحديقة. كانت السقوف عالية والأرض مغطاة بالبلاط، واختارت أسيل اللون الأخضر لغرفة نومها الجديدة. وخلعت الحجاب حين بدأت ترى مزيداً من الشابات يخرجن دون حجاب في الطرقات، وارتدت البنطال خارج المنزل. وحصلت العائلة على صحن «ساتلايت» على الرغم من أن الكهرباء كانت تأتي أربع ساعات، وتتقطع بعدها أربع ساعات، عاد هاتف المنزل للعمل من جديد بعد أن كان خارج الخدمة أشهر بسبب أضرار الحرب والنهب، وحالما أصبح هناك تغطية متقطعة لخطوط

الهواتف الخلوية حول بغداد وبعض المدن الأخرى، حملت أسيل هاتفاً خلويًا. وفتحت حساب بريد إلكتروني، وكانت تستمتع بالذهاب إلى مقهى الإنترنت، وتدخل إلى غرف الدردشة، حيث كانت تثير جنون الشباب من جميع أنحاء العالم العربي الذين كان هدفهم الرئيس هو لقاء البنات على الإنترنت، والذين كانوا يسمعون بدلاً من ذلك كلاماً عن التهكم السياسي من هذه العراقية العنيدة. علقت أسيل مرة أن الأمريكيين والإسرائيليين بدوا أكثر اهتماماً بالعراقيين من العرب.

فرد شاب مصري: «أسيل، العرب إخوة لهم دم واحد كجدار حجري. لا يريد عربي قتل المسلمين. العرب يرفضون ما يحدث في العراق؛ لأننا إخوة».

- أجابت أسيل: «أنتم أناس سيئون».

- «انتظري يا أسيل، العراقيون هم أفضل الناس».

- «أنت كاذب».

- «لكن أنتم العراقيون مع أمريكا وإسرائيل».

- «أنا فخورة بذلك. لكن حسني في إسرائيل. مع السلامة».

- «لا، لا، انتظري».

لكن حياة أسيل لم تكن تتغير بالسرعة التي تتاسبها. فقد كان من المستحيل أن تحصل على جواز سفر؛ لعدم وجود مكتب لهذا بعد، وكانت المنحة للدراسة في الخارج أمراً بعيد المنال. كان العراق يبدو منعزلاً، كما كان دائماً. كما أن التبادل الأكاديمي، وشحنات الكتب، وزيارات المحاضرين التي كانت جامعة بغداد تتطلع إليها في الأشهر الأولى للاحتلال لم تتحقق، بدلاً من ذلك استولت الجماعات الدينية على حرم الجامعة، مع لافتاتهم الموجودة في كل مكان وصور الشهداء. وقد أدى تفجير مبنى الأمم المتحدة، وبعد ذلك الزيادة الثابتة للتفجيرات الإرهابية وعنف المتمردين في فصل الخريف والشتاء، إلى خروج جميع المنظمات الدولية من العراق إلا أشجعها. وفي صباح 18 كانون الثاني 2004، كان شقيق أسيل يقف

في صف من السيارات على بوابة الحشاشين، ينتظر دخول المنطقة الخضراء، حين حصل انفجار كبير لسيارة تفصله عنها ست سيارات كان فيها ألف رطل من المتفجرات، مما أدى إلى مقتل اثنين من الأمريكيين وثلاثة وعشرين عراقياً، كانوا يعملون لدى سلطة الاحتلال. وقد امتص ميكرو باص مليء بالشابات أمام سيارة شقيق أسيل مباشرة قوة الانفجار، واستطاع العودة إلى المنزل وقد أصيب بجروح في وجهه من الزجاج المتطاير. وبعد ستة أسابيع، في عاشوراء، اليوم الأكثر قدسية في التقويم الشيعي، كانت أسيل وشقيقها يقفان في حشد من المتعبدين أمام مزار الكاظمية، الحي الشيعي القديم في بغداد. كانت الشمس تلمحهم، فشعرت أسيل بالحرّ، وتحركوا مئة ياردة بعيداً نحو الظل. وبعد ربع ساعة، فجّر رجل نفسه في النقطة نفسها التي كانا يقفان فيها، وأعقب ذلك عدة انفجارات أخرى بشكل ثابت، بينما بدأ الجمع الهلع بالتدافع. كان الأمر ذاته يحدث في الوقت نفسه في المزارات المقدسة في كربلاء، جنوب بغداد. مات ما لا يقل عن 180 مدنياً في تفجيرات عاشوراء.

كان موقف أسيل من تلك الكوارث التي أوشكت فيها على الموت هو موقف العراقيين الآخرين ذاته: حين تحين ساعتك، لا يمكنك فعل شيء. في تلك الأثناء كانت غاضبة من القيود في حياتها.

قالت أسيل: «إذا أراد الأمريكيون أن يصنعوا لنا معروفاً، يمكنهم أن يعطونا الحرية لمغادرة العراق. فالعقول مقفلة هنا. سيستغرق ذلك عشرين عاماً على ما أعتقد، ولا أريد أن أخسر حياتي هنا».

اقتрحت والدتها أن أخذها إلى نيويورك وأضعها في واجهة للعرض: «فتاة عراقية!».

إن كونها عراقية كان نوعاً من السجن بذاته. لم أستطع الذهاب مع أسيل وحدنا إلى مطعم، ولم يكن بإمكاننا أن نتحدث في بيتها وحدنا، ولم تكن تستطيع أن تقبل خدي كما كان بقية أفراد عائلتها يفعلون. وبسبب كل إصرارها على حرية التفكير، وحرية اللباس، وحرية القراءة، وحرية التحرك (كانت تتوق إلى ركوب دراجة والتجوال بها في المدينة، وهذا شيء لم تكن امرأة تفعله دون أن تلفت النظر بشكل غير مرغوب فيه أو أسوأ من ذلك)، كان لدي شعور بأنها قبلت هذه المحظورات على أنها الطريقة التي عليها أن تعيش بها. حين كانت في

السادسة عشرة من عمرها رقص معها قريب لها أكبر سناً في حفل زفاف، وكانت لمسه يده على ظهرها لا تشبه شيئاً مما شعرت به من قبل. ثم سافر للدراسة، وسرعان ما تزوج، وكانت هذه نهاية لأول وآخر علاقة حب في حياتها. كانت تصلي بشكل متقطع فقط، وكانت لا تذهب إلى المسجد إلا في المناسبات الخاصة كعاشوراء، وكان موقفها من الدين باطنياً أكثر مما كان مذهيباً. لكنها مع ذلك كانت تريد أن تكون فتاة عراقية جيدة.

في الغرب كان العراق معروفاً بأنه أكثر البلدان علمانية في المنطقة، وكان يعتقد أن شعبه متعلم وعالمي وحديث. لكن هذه السمعة انقلبت لتصبح تخلفاً عقوداً من الزمن. بعد سبعينيات القرن العشرين الغنية بالنفط والمتحررة التي كانت النساء فيها يرتدين التنانير القصيرة، وكان الكحول يتدفق بحرية، فجعلت الحرب التي لا نهاية لها، والثورة الإسلامية في إيران المجاورة العراق محافظاً أكثر بكثير مما يدركه الناس خارج العراق، بمن فيهم المغتربون العراقيون. خاصة بين الشيعة الفقراء كانت النساء يخفن تحت الحجاب والعباءة، والثوب الأسود بالطول الكامل. أصبح رجال الدين الشيعة أخطر معارضة داخلية لصدّام. ولتدعيم قوّته بقاعدته السنية بعد كارثة حرب الخليج، شنّ الديكتاتور الذي أصبح تقياً حديثاً حملة أسلمة: وأضيفت عبارة «الله أكبر» إلى العلم العراقي بخط يد صدام، كما كتبت نسخة من القرآن بدمه، وبدأت المساجد السنية العملاقة ترتفع في أرجاء بغداد، بدءاً بمسجد أم المعارك. كان كثير من تلك المساجد غير مكتمل البناء حين وصل الأمريكيون، وفي أرجاء المدينة يمكنك أن ترى هياكل القباب التي لم ينته بناؤها مغلّفة بالدعامات، كنصب لحضارة محاربة انتهت بكارثة مفاجئة. وفي الأنقاض في الأسفل كانت جموع الشيعة تخرج للمطالبة بالشوارع.

تزامن شهر آذار 2004 تقريباً مع الشهر الهجري الأول في التقويم الإسلامي، المحرم. وكان هذا الشهر، شهراً مأساوياً لدى الشيعة، شهراً مشؤوماً، وقد قال لي الشيخ عماد الدين العوضي: إن المسلمين المتديّنين لا يتزوجون فيه، ولا يتخذون قراراً مهماً. كان اليوم العاشر من المحرم هو عاشوراء، ذكرى موت الإمام الحسين، حفيد الرسول ﷺ، عام 680م، ومجزرة أتباعه في كربلاء التي أتاها الحسين ليطالب بزعامة المؤمنين. لكن القتلة ندموا فوراً، وأصبحوا الشيعة، أو «حزب» علي والدة الحسين، فقد كانوا يعتقدون أن الخلافة تمرّ

بذريته، على خلاف السنة الذين كانوا يختارون خلفاءهم من دائرة السلطة الدينية، والذين جعلوا بغداد مركز الخلافة العباسية، وبقيت فيها إلى أن استباح الغزاة المغول المدينة عام 1256. وبدءاً من موت الحسين وعبر تاريخ العالم العربي الإسلامي، كان الشيعة أكبر الخاسرين، وكانوا يرزحون تحت النير الديني للخلافة السنية، إلى أن ألغاهم أتاتورك عام 1920، وبعدها تحت السلطة الدنيوية للملوك والديكتاتوريات السنيين في الدول العربية الجديدة. في ضوء هذا التاريخ كانت النتيجة الأهم للغزو الأمريكي للعراق، والمشروع الأمريكي الأكبر لإقامة حكم أكثرية في العراق، هي أن الشيعة، أول مرة في تاريخهم، سيحصلون على السلطة في بلد عربي.

والآن بعد مرور 1324 عاماً على حادثة كربلاء، كانت بغداد مزينة برموز التقوى والندم الشيعية، وكانت الأعلام الحمراء ترمز لدم الحسين، والأعلام الخضراء ترمز للإسلام، والأعلام السوداء ترمز للحزن، وكانت تلك الأعلام تحمل رسائل مثل أن «الحسين علمنا أن نصبح ضحايا؛ لنكسب النصر». كما أصبحت الأناشيد، والعروض، وضرب الصدور، ولطم الخدود والظهور في احتفالات التكفير، عرضاً للقوة الجماعية أيضاً. وللمرة الأولى منذ أكثر من عقدين من الزمن، كان الشيعة أحراراً في الاحتفال بعاشوراء في العراق؛ لذا كانت المزارات المقدسة في بغداد وكربلاء مزدحمة بشكل غير عادي بالحجاج الشيعة الملتحفين بالأسود من أنحاء العراق وإيران ومن أقاصي البلاد، وقد تخفى بينهم بعض الجهاديين السنيين الذين يرتدون الأحزمة الناسفة.

أصبحت مشرحة بغداد مستودعاً مليئاً بالجنث والرؤوس والأطراف وأكوام اللحم. وأمام البناء الأصفر الذي يتألف من طابقين في حي متهاك قرب نهر دجلة، يدعى المدينة الطبية، وقف رجل ينتظر ليدخل، ويبحث عن فتى في الحادية عشرة من العمر، وهو جار له أصيب والده ووقد في المشفى. كان آخرون يغادرون المشفى، وعلى وجوههم قطع من الشاش، وكانت السلطات تسرع إنهاء عملية التعريف، لم يكن هناك تشريح للضحايا، كما أخبرني د. بشير شاكر، وهو طبيب شرعي شاب كان مناوباً. كان أتباع الحسين هؤلاء آخر الشهداء الشيعة، والإسلام يحرم انتهاك جثثهم.

وفي اليوم الذي زرت فيه المشرحة حدث موت آخر أمام عيني شاكر وصفه لي بأنه «حالة مهمة»، حتى إنه أهم من المجزرة الرهيبة لتفجيرات عاشوراء: فقد وجدت جثة امرأة عازبة في الحادية والأربعين من عمرها مصابة بست طلقات نارية في صدرها. أظهر الفحص الأولي الذي قام به شاكر أنها ليست عذراء، وهذا ما جعل حالتها مهمة.

قبل الغزو الأمريكي، قال الطبيب: كانت تصل حالة موت بسبب العنف شهرياً إلى طاوولات مشرحة المدينة. هذا الرقم يظهر حالتين من حياة العراقيين في عهد صدام: فقد كانت الحكومة تحتكر العنف تقريباً وكان معظم الضحايا يختفون بلا أثر في مجازر جماعية. وكان الانتشار الواسع للعنف الذي لا يمكن توقعه، من آثار تحرير العراقيين من طغيان البعث. في العراق المحتل، تصل إلى المشرحة ما بين خمس عشرة وخمس وعشرين ضحية لجرائم قتل كل ليلة، معظمهم مصابون بطلقات نارية. وكل أسبوعين كانت الجثث التي لا يطالب بها أحد ترسل إلى السلطات لدفنها على أنها جثث مجهولة الهوية. قدّر شاكر أن هناك خمس حالات كل أسبوع لبعثيين أُعدموا في أعمال قتل انتقامية؛ كانت عائلاتهم تستلم الجثث دون إعلام الشرطة. ومع المحاكم التي لا تكاد تعمل، وقوات الشرطة الضعيفة وغير المدربة والفاسدة في الغالب، والمحتل الأجنبي الفاشل في تقديم الأمن، والجو العام من انعدام الأمن - جرائم الاختطاف، وسرقة السيارات، وقطع الطرق السريعة، وإطلاق الرصاص على يد الجنود الأمريكيين على نقاط التفتيش، وأعمال التفجير الانتحارية، والاشتباكات المسلحة المدنية، والقتل من أجل الانتقام أو المال أو أي سبب أو بلا سبب - لم يتوقع العراقيون أن يبدؤوا يحصلون على العدالة التي كانوا محرومين منها في أثناء عهد صدام في وقت قريب أبداً.

ألقت تفاصيل «القضية المهمة» للدكتور شاكر الشبهة على عائلة القتيلة. فعدد الطلقات تشير إلى شيء مختلف عن أسلوب العصابات الجديد في القتل. وقد سمى الطبيب مثل هذه الجرائم «غسلاً للعار». فقد قال شاكر: كان القتل ثأراً للشرف عادة قديمة في العراق، على الرغم من أنه في هذه الحالة مع عنصر جديد: فقبل الحرب كانت العائلة تحرق الفتاة أو تفرقها لتغطي على الجريمة. قال شاكر: «الآن بإمكانك أن تقتل وتمضي، لا حاجة لتغطية الجريمة». كانت العبارة القياسية لـ «غسل العار» في السجن تعني ستة أشهر.

أحيلت حالة المرأة إلى لجنة من خمسة أطباء، فوجدت أن المرأة كانت عذراء. وأغلقت القضية. لن يتم التحقيق مع العائلة. ولغياب وجود وسيلة لإيجاد أدلة أخرى، فقد أغلقت الشرطة ملف المرأة.

في آذار 2003، قبل أسبوع من بدء الحرب، أُحضرت فتاة في السادسة عشرة من عمرها إلى معهد الطب الشرعي، وهذه الفتاة كانت شرطة النظام السابق قد وجدتها تتجول تائهة في الشوارع، وعند فحصها، وجد شاكر أنها قد فقدت عذريتها مؤخراً وبغف. كانت الفتاة، اسمها رغدة، جميلة شاحبة البشرة وعيناها سوداوان داكنتان، وكانت بائسة لدرجة أنها كانت لا تكاد تستطيع الكلام. لم تبدُ رغدة أبداً كالمومسات المراهقات اللواتي فحصهن شاكر، وأقنعها بلطف أن تخبره بما حدث.

كانت رغدة قد ذهبت إلى اختبار مذيعة تلفازية في استديو يملكه ابن صدام الأكبر المضطرب عقلياً، عدي، فأخذت رغدة مع ست فتيات أخريات ممن وصلن إلى الدرجة النهائية إلى غرفة كان عدي يجلس فيها - معاقاً بسبب محاولة اغتيال تعرّض لها عام 1996 - على كرسي، ويحمل مسدساً في حضنه. في الأيام اللاحقة، قام عدي (الذي كان يرتكب بعضاً من آخر جرائمه في السلطة، بينما كانت قوات الغزو تحتشد على الحدود الجنوبية للعراق) باغتصاب الفتيات تحت التهديد واحدة تلو الأخرى، ثم رماه في الشارع، مخدّرات، ومع كل منهن صرّة من النقود، وهكذا وجدت الشرطة رغدة. وحين روت لهم القصة ضربوها، وأحضرها إلى معهد الطب الشرعي.

قالت رغدة للطبيب: «إذا أردت أن تساعدني فاذهب وأخبر والدي أن ابنتهما قد وجدت ميتة».

وفي يوم 18 آذار، اليوم السابق لبداية الحرب، أعدّ د. شاكر التقرير، فأعيدت رغدة إلى الشرطة، ولم يعرف شاكر شيئاً عن مصيرها بعد ذلك.

في مدة عمله، خدم شاكر في الجيش العراقي، وكان له دور في احتلال الكويت، وهي مدة لا يستطيع وصفها إلا بأنها مختلفة تماماً عن بقية حياته. كانت شهادته في المحاكمات تؤدي

إلى إعدام الشاذين جنسياً. وفي المشرحة تعامل مع الموت الناتج عن العنف ليلاً. وقد جاء يوم الجمعة دام في آذار 2004 باثنتين وثلاثين جثة، منهم جثث مهندسي مياه المانيين وآخر هولندي أطلق المتمرّدون النار عليهم على أحد الطرقات جنوب بغداد، وصحافيين عراقيين أطلق الجنود الأمريكيون النار عليهما وقتلوهما، بينما كانوا يخرجون من نقطة التفتيش. فيما يتعلق بشاكر، فقد كانت تلك الحالات أموراً فكرية بحتة. كان أثر الهدوء ظاهراً في نظرة عينيه الزرقاوين الباردة الوسيمة، وفي أسلوب حديثه الصريح، وفي ابتسامته التي كانت تتحول تلقائياً إلى ازدراء، لكنه لم يتغلب على قصة رغدة.

حين التقيت بالدكتور شاكر كان يبحث عن تغيير في حياته. قال شاكر: «أي تغيير للأحسن أو الأسوأ». كان يعاني من أن عقله لا يرتاح ويشعر بملل بغيض، ولأن الأمريكيين كانوا يمثلون شيئاً جديداً، فقد رحّب بي وأصبح دليلي إلى الجانب السفلي السقيم من بغداد. افترضت أن هذا الرجل المتعلم ذا التفكير التقدّمي، بقصة شعره المستوية من الأعلى وذقنه الحليقة بنعومة، كان يريد عراقاً علمانياً تحريراً نسبياً. بقيت أنتظر حتى تلتقي عينه بعيني، بينما كان يصف العيادة ويهز رأسه أسفاً على تراجع مجتمع مهووس بالشرف. لكن هذا لم يحدث.

ولد شاكر عام 1968، في السنة التي جاء فيها حزب البعث إلى السلطة. قال شاكر: «منذ خمسة وثلاثين عاماً، أشعر أنني ميت، لم أبدأ بالحياة إلا في هذه الأسابيع الأخيرة». فسقوط صدام ووصول المحتلّين الأجانب -الذين صادف أنهم صنّاع أفلامه القديمة المفضلة- قد جاء أخيراً بفرصة لحياة جديدة. ولشوقه للحصول على وثائق سفر والمغامرة خارج العراق، فقد باع عيادة الأمراض الجلدية الخاصة به وقطعة أرض كان قد حصل عليها بصفته جندياً. كانت أولى رحلاته الخارجية إلى عمّان -الأردن، حيث كان قد ربّ للقاء فتاة عراقية تعيش في المهجر في أمستردام، وتزوّجا بعد يومين. «مثل الأفلام»، حسب قول شاكر. لكنهما عادا إلى مدينتيهما دون أن يتمّما الزواج؛ لأنه لم يكن حسب الطريقة الإسلامية، وانتظرا حتى تستقرّ الأوضاع في العراق أكثر.

لكن هؤلاء المحتلّين الأجانب ذاتهم يترأسون الفوضى التي أوجدت العمل الكثير الذي يراه شاكر كل ليلة في مشرحة بغداد. في الصباح عندما سُمح لي بالدخول، كان الدم الرطب

على الأرض وعلى النقلات الفارغة يجذب الذباب. وكانت الرائحة الكريهة للموت شديدة، لدرجة أنني اضطررت أن أضع منديلاً على أنفي. كان للمشرحة الجوّ القذر الذي كان في المشفى الأمامي، ولم يكن هناك شيء أقل رسمية من الأموات أنفسهم. كانت الجثث في القاعة مرمية على الطاولات دون أغطية. وُجد رجل عريض الشاربين، مقطوع الحنجرة لدرجة أن رأسه يكاد ينفصل عن جسمه، عارياً تحت كومة من القمامة في حي للطبقة المتوسطة. ورجل مصاب بطلق ناري في رأسه، وكانت عيناه الزرقاوان مفتوحتين وعليهما غشاوة، وقد وضع أنبوب التنفس البلاستيكي البرتقالي في فمه كأنه صفارة. وجثة صغيرة متفحمة لامرأة احترق كل جسمها تقريباً. في البرودة الكثيبة لغرفة التبريد، كان هناك ست جثث عارية ممددة على الأرض، لامرأتين وأربعة رجال. إحدى المرأتين مصابة بطلقة نارية في الصدر، ويفترض شاكر أن أحد أقاربها قد قتلها؛ وقال إن بعض هذه الجثث لن يطالب بها أحد، فلن يكون هناك تفصيل للجثث، ولا مراسم دفن إسلامية، بل مجرد تخلّص منها.

وفي طريق الخروج، مررت برجل حسن الثياب كان يحدّق بالوجه الشمعي فوق الحنجرة المقطوعة. كان ابن عم القتل، كان قد بحث عنه في جميع المشايخ قبل أن ينتهي به المطاف إلى المشرحة. وحين رفع بصره، التقت عيناها بعينيه في حزن. بدا تائهاً، كأنه كان يطلب تفسيراً. هزّ رأسه واستدار ليغادر، وهو يتكلم مع نفسه بشكل مسعور.

بينما كانت المشرحة تقيض بالموتى، كانت غرفة الفحص خارج القاعة، فارغة عادة. قبل الحرب كان الوضع معكوساً. لم يكن هذان القسمان من معهد الطب الشرعي يحتلان الطابق نفسه فقط؛ لكن كانت بينهما علاقة أخلاقية هشة، وكأن التحكم الاجتماعي بالشرف كان يقدم الدفاع الأخير ضد الفوضوية التي تؤدي إلى القتل. كان شاكر، وهو شيوعي متدين، يتساءل إن كانت طريقة الجلد أمام الناس في إيران هي السبب وراء وباء البغاء الذي تفشى في العراق، حسب قوله، في غياب القانون في ظل الاحتلال؟ قال شاكر: «إنها طريقة صارمة وفضيعة، لكن لها نتائج جيدة، فالبغاء الآن شيء عادي». ألقى اللوم على الأمريكيين، ولا سيما بريمر الذي هدّد في شباط بالفيتو لأي دستور انتقالي يعلن الإسلام أساساً رئيساً للقانون. كانت الحرية الشخصية، أكثر رغبات أسيل حماساً، كارثة أخلاقية في رأي بشير شاكر الذي قال: «حين يعطون الجميع حقوقهم، فإن هذا يسبب أموراً سيئة في المجتمع،

إنه يفسدنا. أما إذا كان الإسلام هو المصدر الرئيس للقانون، فلن تحدث أي من هذه الأمور».

كان من مقاييس عدم قدرة أمريكا على تحقيق أهدافها في العراق أن رجلاً مثل بشير شاكر الذي كانت الإطاحة بصدام تقدم له فرصة للكثير من المكاسب، شعر الآن بأنه منجذب إلى نوع أقسى من الإسلام على أنه رد فعل على انعدام الأمن العام تحت الاحتلال. قال الطبيب: إنه ينتمي إلى «الفكر المتوسط» في المجتمع العراقي، بين الجموع المتشددة دينياً الأقل مكانة منه وبين النخبة العلمانية الأعلى. قال شاكر: «هناك كثير من العراقيين مثلي في العراق، لم يكن هناك شيء غير عادي في أن يحب طبيب مارلين مونرو وكاري غرانت، ويدافع عن جلد المومسات، ويؤمن بأن المثليين الذين يتم إعدامهم يكونون قد نالوا ما يستحقون. لكن الفكر المتوسط كان يعني الصراع الداخلي. فقد كان شاكر يخشى من آثار الحياة خارج العراق، والصور التي يبثها لاقط الأقمار الصناعية الذي ركبته على سطح بيته حين كان ممنوعاً وخطراً جداً أيام صدام. وقد وقع في حب امرأة عراقية مستقلة التفكير نشأت في هولندا وترتدي القمصان القصيرة، وإذا عادت إلى بغداد، فإنه يريد لها أن تبدأ بتغطية شعرها والتصرف على أنها امرأة مسلمة تقليدية أكثر. كان مغرمًا بعمله، لكنه كان قلقاً من أن الموت المحيط به يومياً قد يقسي روحه. قال شاكر: «لا يتعامل الطبيب الشرعي إلا مع الجثث؛ لذا فقد أصبح في النهاية مثلك وجودياً».

كان شاكر يعيش مع والدته وإخوته وأخواته في جانب شارع جانبي أنيق في منطقة كبيرة فقيرة غالبية سكانها الذين يبلغ عددهم مليونين من الشيعة في شمال شرقي بغداد، لا يزال بعض أهل بغداد يسمونه باسمه الأصلي، حي الثورة. كان صدام الذي كان مكروهاً هنا كما في أي مكان آخر في العراق، قد فرض اسمه على المكان، وبعد سقوطه مباشرة طالب السكان بتسمية مدينة صدام باسم مدينة الصدر، باسم آية الله محمد صادق الصدر، وهو من كبار رجال الدين الشيعة وكان قد اغتيل عام 1999 بأمر من صدام على الأرجح. كان عمّ الصدر، آية الله محمد باقر الصدر، أكبر عالم شيعي للجيل السابق قد تعرّض للتعذيب والقتل مع شقيقته عام 1980. دُمّر قمع صدام الوحشي للانتفاضة التي أعقبت حرب الخليج

عام 1991 رجال الدين الشيعية المعروفين في مدينة النجف المقدسة التي كانت مركز الثورة: وقد مات آية الله العظمى سيد أبو القاسم الخوئي بعد ذلك بوقت قصير، كما وضع آية الله علي السيستاني تحت الإقامة الجبرية. واختار صدام محمد باقر الصدر الذي كان معتقلاً في ذلك الوقت لتولي قيادة الشيعة في العراق. وهكذا رُفِع الصدر بمباركة صدام وأموال البعثيين، وفي أثناء تسعينيات القرن العشرين أنشأ الصدر شبكة من آلاف الأتباع الذين وظّفهم من الشباب الشيعة الفقراء وغير المتعلّمين في الريف، وأعطاهم تعليمات دينية ستة أسابيع في النجف، ثم نشرهم في أنحاء المدن ذات الأغلبية الشيعية في الجنوب، بالإضافة إلى مدينة الثورة في بغداد. كانت رسالة الصدر مزيجاً شيعياً للقومية والشعبية: كان يتكلم باسم المحروم ويلقي اللوم في مشكلات الشيعة العراقيين على أن الكثير من قاداتهم الدينيين، كالخوئي والسيستاني قد جاؤوا من أصول إيرانية. كان أتباع الصدر يصفونه بصفات فوق الصفات البشرية. قال لي أحد أشقّاء شاكر الأصغر سناً: إن الله يوم القيامة سيرى كل شخص كما هو فعلاً: فالكذاب يبدو ككلب، والرجل المتكبر يبدو كحشرة دقيقة، وشارب الخمر كالخنزير. لكن آية الله الصدر كان يرى البشر بهذه الطريقة حين كان حياً.

مع نهاية تسعينيات القرن العشرين، بدأ الصدر يتحدّى النظام الذي كان قد جعل منه زعيماً. كما ذمّ السيستاني والحوزة «الصامته» (مدرسة العلوم الدينية الشيعية) في النجف، ووصف نفسه بالحوزة «المتكلّمة» التي تؤمن بخميني إيران، والدور المركزي لرجال الدين في السياسة. وفي سلسلة من خطب الجمعة في مزار الكوفة، على بعد أميال قليلة من النجف، استخدم الصدر استعارات ومعاني مزدوجة للهجوم على الطغيان البعثي. حسنت هذه الخطب التي كان يتم تسجيلها وتوزيعها سرّاً من سمعة الصدر بشكل كبير، كما أنها أدت إلى استشهاده الذي كان بطرق كثيرة النهاية المرجوة، كما كانت لكثير من الشخصيات في التاريخ الشيعي. تعرّض الصدر واثنان من أبنائه لكمين وإطلاق نار على الطريق بين النجف وكربلاء. لكن ابنه الأصغر، مقتدى الصدر الذي كان يدرس في الكلية، بقي حياً ليطالب بدور أبيه وأتباعه.

كان على الباب الأمامي الخشبي لبیت شاكر ملصق دائري يحمل صور الصدر ذي اللحية البيضاء، مع عبارة من إحدى مواعظه، يصرّ فيها على حجاب المرأة. كانت غرفة

المعيشة مزينة بصور الصدر، ومقتدى، والإمام الحسين، وهو يعبر نهراً على ظهر حصان في ضوء القمر، وكانت خزانة التلفاز مليئة بأقراص مضغوطة تحتوي على خمس وأربعين خطبة لآية الله الصدر، وكومة من أعداد صحيفة الحوزة، الصحيفة المعادية بشدة للأمريكيين والتابعة لحركة مقتدى الصدر. أخبرني شاكر أنه يرى نشرات الأخبار التلفازية في قناة الجزيرة والقنوات الإيرانية - لم يكن يشاهد الشبكة التي يديرها الأمريكيون - أدركت أن مصدر معلوماته الوحيد من العالم غير الإسلامي كان أفلام هوليوود القديمة. وهذا لم يساعده كثيراً في تحليل حقيقة قصة لاحظتها في صحيفة الحوزة. كانت الصحيفة قد نشرت صورتين متجاورتين للرئيس بوش والرئيس كلينتون، وهما يرفعان إصبعي السبابة والخنصر، وقدمت المقالة المرافقة الصورتين دليلاً على المؤامرة الصهيونية الماسونية.

انضمّ إلينا في غرفة المعيشة شقيقا شاكر الأصغر سنّاً، علي وسمير. كان علي مدرّس رياضيات في مدرسة ثانوية، وكان سمير مصّاح اتصالات عاطلاً عن العمل. وقد كانا، بخلاف شقيقتهما الأكبر ذي الشعر الأشقر الفامق والبشرة البيضاء أسمرين، ولهما لحية ومحترمين وجدّيين وحذرين بعض الشيء.

قال شاكر: «سمير أقرب إلى الله مني، أما علي فهو مثلي مرن». كان علي وسمير من أتباع مقتدى المخلصين؛ وكانا معاديين للاحتلال. من حين لآخر، كان الباب الداخلي يطرق، ويقوم أحد الشقيقين لإحضار صينية البيبسي من امرأة لا تراها.

فتح علي موضوع تفجيرات عاشوراء. فقال سمير: «يعرف خمسة وتسعون بالمئة من العراقيين أن الهدف الرئيس لهذا هو إشعال حرب دينية بين الشيعة والسنة». كان يشكك في التأكيد الأمريكي بأن أبا مصعب الزرقاوي الإرهابي الأردني الذي تربطه صلات بالقاعدة، الذي كان قد كتب مؤخراً رسالة طويلة إلى أسامة بن لادن يدعو فيها إلى إستراتيجية إثارة حرب أهلية في العراق، هو المسؤول عن الهجمات. قال علي: «هذا الزرقاوي - إنها مجرد لعبة يستخدمها الأمريكيون. قبل انتخاب بوش، إذ يظهر الزرقاوي على شاشة التلفاز، كما كانوا يظهر صداماً، فقد كانوا قد أمسكوا به قبل إظهاره بأشهر».

قال لي الإخوة نكتة عن الاحتلال، إذ كان جندي أمريكي يوشك أن يقتل رجلاً شيعياً، فصرخ الشيعي: «لا، أرجوك، بحق الإمام الحسين!» فسأله الأمريكي: من هو الإمام الحسين ثم قرّر أن يتركه. وبعد أسابيع أرسل الجندي الأمريكي ذاته إلى الفلوجة، حيث حصره متمرد سني. ففكر الجندي بسرعة وصرخ: «لا، أرجوك، بحق الإمام الحسين!» فقال المتمرد: «ماذا؟ ألا يكفي أنك أمريكي، أنت شيعي أيضاً؟» وأطلق النار عليه.

كانت هناك لحظة من الضحك في غرفة المعيشة.

نظر علي الذي كان يجلس متربّعاً على بساط مقابل الجدار، إليّ مباشرة، وقال: «قبل الحرب، كنت أنتظر مجيء الأمريكيين، والآن أشعر نوعاً ما أنني خدعت. كل هذا الكلام عن إعادة بناء العراق، وكل ما نراه هو طبقات خفيفة من الطلاء. ويقولون: إنهم أصحلووا العراق. أما سمير، فقد تحدّث بلجهة أكثر قتامة، وعلى وجهه ابتسامة خافتة. لم يكن لديه أي أوهام في السابق، وقال: «ليس هناك عدو يجب عدوّه. نحن نعرف جيداً أن الأمريكيين لا يريدون لنا الخير».

فأشرت إلى أن الأمريكيين قد تخلصوا من صدام على الأقل.

قال علي: «هذا لا يكفي. الأمور أسوأ الآن. لم نعد نستطيع الخروج في الرابعة كما في السابق».

فسألتهم، إذا جرت انتخابات حرة في العراق في أثناء سنة، فهل سيكونون راضين؟

قال سمير: نعم.

أما علي فلم يوافق: «لا أظن أن الناس سيكونون راضين. ماذا لو أصبح لدينا رئيس؟ الهواتف الخلوية التي لدينا هنا لا تعمل. لم لا يمكن أن يكون الوضع كدول الخليج؟ ربما بعد أجيال وأجيال. لكننا لن نكون هنا. هذا يجعلني أكتئب».

طلب شاكر أن يستعير هاتفه الموصول بالأقمار الصناعية، وخرج إلى السطح واختفى؛ للاتصال بعروسه في أمستردام.

في يوم الجمعة اللاحق لتفجيرات عاشوراء، ذهبت مع شاكر لحضور الصلاة في الكاظمية. وعلى طول السوق التي تنتهي بالساحة أمام المسجد الذي يعود إلى القرن السادس عشر، كان هناك شبّان متجهّمون يرتدون ملابس سوداء، ويحملون بنادق كلاشينكوف، يفتشون جموع الحجيج؛ بحثاً عن أسلحة. كان هؤلاء الشبّان قوة الأمن المحلية لجيش المهدي، أتباع مقتدى الصدر المسلّحين الذين سمّوا أنفسهم باسم الإمام الثاني عشر، الإمام الغائب الذي يتوقع أن يعود كالمسيح ويبشر بالقيامة. لم يكن هناك شرطة عراقية أو جنود أمريكيون في الشوارع. وقد قال لي أحد رجال الميليشيا، وكان في الثامنة عشرة من عمره: إن الأمريكيين كانوا قد منعوا جيش المهدي من حمل السلاح يوم عاشوراء. كان هذا قراراً أحمق، وقال: لو كانت الميليشيا مسلّحة لاستطاعت أن تعيد أفواج المصلّين في ذلك اليوم وتمسك بالمنفجّرين الانتحاريين الذين اختلطوا بالجموع. بعد الانفجارات، استقبل العراقيون الجنود الأمريكيين الذين اندفعوا لإخلاء المصابين بوابل من الحجارة والأحذية.

وبينما دخل شاكر إلى أحد المتاجر ليتوضأ قبل الصلاة، أخبرني رجل دين محلي اسمه الشيخ محمد كناني بأن المنفجّرين كانوا من أفراد القاعدة الذين يعملون بالاتفاق مع جندي أمريكي استخدمته حملة جون كيري، قال الشيخ: «أعتقد أن جون كيري كان وراء ذلك ليخسر بوش الرئاسة وتسوء صورته أمام العالم، لكن العراقيين هم الذين يدفعون ثمن ذلك». ازدادات حركة نظريات المؤامرة لدرجة أن وحدة الاستخبارات الأمريكية بدأت بوضع (بعوضة بغداد) وهي خلاصة يومية للشائعة التي تدور حالياً، لا تختلف عن السجلات التي كان حزب البعث يحتفظ بها. حسب ما سمعته من رجال تحدثت معهم في الكاظمية، (...) فقال رجل في السوق: «أمسكنا رجلاً من الرمادي قبل ساعة»، (...) كان جسمه نظيفاً بشكل مريب. وبتفتيش الرجل وجدت ورقة فارغة وخريطة. وقد أخذها السكان المحليون إلى مركز الشرطة، حيث سيتم تعذيبه إلى أن يعترف.

بدأت الصلاة تحت أشعة شمس الظهرية المحرقة، حيث كان المرقد نفسه، بمأذنه وقبته الذهبية الضخمة، والأقواس المغطاة بالقيشاني التي ترتفع فوق الأبواب الخشبية الأمامية،

مغلقاً بسبب الضرر الذي سببته التفجيرات. ملأ الرجال الساحة، إذ كانوا يحملون علامات سوداء وصوراً للشهداء الشيعة، وكانوا يحركون أيديهم وينشدون: «اللهم صل على محمد وآل محمد وعجل فرجهم، والعن عدوهم. النصر لمقتدى! نحن أتباع مقتدى!».

ركع الطيب في الصف الأول وصلى. بدا غريباً بين الحشد، فقد كان المصلي الوحيد الذي لا ينشد.

قام أحد مساعدي مقتدى، واسمه حازم الأعرجي بالخطبة. كان سيداً، أي من أحفاد الرسول ﷺ، في الخامسة والثلاثين من عمره، له لحية سوداء يخالطها شيب، كان قد أمضى سنتين في المهجر في فانكوفر قبل الحرب. وحين تحدثنا في مكتبه لاحقاً، أثبت أنه سياسي مبتسم سهل يدخل إلى موقع غوغل عدة مرات يومياً؛ ليبقى على اطلاع على الصحافة وقد صنع دولة إسلامية دينية لا تبدو مختلفة كثيراً عن الديمقراطية البرلمانية. لكنه أمام حشد المصلين خارج المرقد، أطلق تحليلاً حارفاً تأمرياً للعنف في العراق. جاءت الهجمات من أربعة مصادر - أعلن الأعرجي - ليس أي منها عراقياً أو مسلماً: إنهم اليهود والأمريكيون والبريطانيون والقاعدة. كان اليهود الذين تلقوا تحذيرات بالابتعاد عن مركز التجارة العالمي يوم 11 أيلول، فلم يمت أي منهم «يريدون أن يموت العراقيون». وأمريكا، الشيطان، سمحت بالعنف لتحصل على ذريعة للاستمرار في احتلال العراق. والبريطانيون، شركاء الأمريكيين، كان لهم مسؤولية مباشرة» (...).

انحنى شاكر، وخفض كتفه، ونظر في يديه المشبوكتين، وتمتم بصلوات. بدا مشوشاً، وكأنه كان يحاول تخمين شيء. أتساءل إن كان هياج رجل الدين قد أخرجته؟ (...).

قال الأعرجي: «افعلوا ما شئتم أيها الأمريكيون والإنكليز والإسرائيليون، اصنعوا مزيداً من الصواريخ والمتفجرات والإرهاب في كل أنحاء العالم، لكن ذلك لن يوقفنا».

فهتف الحشد: «نعم، نعم للإسلام!».

قال شاكر ساخراً، بينما كنا نخرج من الكاظمية: «إنها مجرد خطبة، لو كنت أعلم أن

هذا الرجل سيخطب خطبة الجمعة، لما ذهبت». كنا نفضّل أن نسمع لمقتدى نفسه. قال شاكر: لوجاء مقتدى، لكان هناك كلام أقل وفعل أكثر.

في الليالي القريبة من عاشوراء يُعدّ الشيعة كميات كبيرة من الطعام، ويزورون الأصدقاء والجيران، وبيقون معاً حتى الفجر يترقبون مرور روح الإمام الحسين بهم. وقد دعيت لقضاء ليلة في بيت شاب يدرس العلوم الدينية اسمه علي طالب. كان يسكن قرب طريق سريع شرق بغداد، في شارع ضيق بين مجموعات البيوت التي رفعت جميعها أعلاماً سوداء وحمراء وخضراء صغيرة على سطوحها. كان علي في الخارج حين وصلت، يحرك قدراً من العصيدة التي تغطي بملعقة خشبية طويلة جداً. وكان جيرانه على طول الشارع يفعلون الأمر ذاته. كان الوقت متأخراً في المساء، وكان حظر التجوال سيبدأ قريباً ليُجعل من المستحيل أن أغادر حتى الصباح. لم يسبق لي أن أمضيت ليلة في منزل عراقي قط، وكان علي يريد أن يجعلني مرتاحاً منذ البداية، فأعطاني الملعقة وأصرّ علي أن أقوم بالتحريك، فكان علي أن أساعد في إطعام روح الإمام الحسين المازة.

كان علي في أوائل الثلاثينيات من عمره، وكان رجلاً مكتنزاً أعرج، شبه أصلع، وله لحية خفيفة (أصرّ أن هذا صحيح مذهبياً؛ لأن ما يهم هو أن يكون هناك شعر على الوجه يكفي لتمييز الرجل من المرأة، وليس أن يكون هناك لحية كاملة). كان علي غيوراً متحمساً، فقد كان يلمس كتفي باستمرار للتأكيد أو عندما يضحك سروراً بشيء قلته صاح علي: «أتمنى لو يصبح اليوم ثماني وأربعين ساعة بدلاً من أربع وعشرين! لا أستطيع النوم بهدوء، هذا الأسبوع نمت ثماني ساعات، بسبب الإنترنت». فقد سمح له الاتصال بالإنترنت الذي كان هدية من أسرته، بالدراسة ليل نهار، وفي غياب الكتب الغالية. قالت علي دون مناسبة: «أتمنى أن أكون في وكالة ناسا الفضائية، وأرى هذا العالم من السماء، وأريد أن أعيش الحياة لحظة بلحظة».

كانت عائلة علي تحاول أن تجعل حياته سهلة ومنجزة قدر الإمكان؛ لأنهم لم يكونوا يعرفون كم سيعيش، فقد كان منذ طفولته يعاني مرضاً في ساقه اليسرى. رفع ملابسه؛ ليريني: كانت ساقه منتفخة ومتغيرة اللون بشكل فظيع، وكان فيها عقد منتفخة في الفخذ

وبطن الساق. أجريت له عملية ولم تتجح: وقد قال له الطبيب: إنه إن لم يذهب للعلاج في الخارج فإن المرض سيقته في النهاية.

قال علي: «أنا صابر؛ لأنني أعلم أن الإمام الحسين عانى أموراً أسوأ جداً، لقد أدى مقتل الحسين إلى ثورة. لكن هذه الثورة لم تكن ثورة دم، بل ثورة روح».

كان بيت علي المكون من طابقين يحيط بفسحة سماوية داخلية صغيرة، وكان هناك عصفور يرفرف في قفص، وجهاز تسجيل ينشد عن جلد النفس، وقد جلست مع علي وعمه نتحدث في الفسحة السماوية، بينما كان الجيران يأتون ويذهبون. كان علي طالباً متحمساً للفلسفة الإسلامية. في عهد صدام، كان يذهب إلى النجف طوال سنوات، دون أن يخبر والديه، وتابع منهجاً دراسياً مع كبار علماء الحوزة الشيعية. كانت الحكومة تراقب الطلاب، وقد أعدم اثنان من معلّمي علي، لكنه كان دائماً يعاني اليأس، وما تعلمه في النجف لم يكن يجعله يحتمل فحسب، بل ينتشي لذلك. قال علي: «الكون كله يقوم على حب الله. ليس فقط البشر، وإنما كل ما ترى في الحياة، كل كائن حي». أصبح علي من أتباع الملا صدرا الصوفي الفارسي الذي كان يعيش في القرن السابع عشر، وهو فيلسوف مثالي بروح الأفلاطونية الجديدة، وقد كان يدرّس عن وحدة الوجود. «لقد شق ملا صدرا طريقه، وكل العلماء من بعده ساروا على الطريق ذاته، وأردت أن أتبعه، لكن نظام صدام وعمي لم يسمح لي بأن أسير في ذلك الطريق».

قال عم علي، وهو شيوعي مسن غير متدين: «لم تكن نريده أن يتبعه؛ لأنه في ذلك الوقت كان مجرد الاستماع إلى هذه الموسيقى قد يؤدي إلى قتله، وكانت العقوبة ستطول العائلة كاملة».

في النهاية، اضطر علي بسبب وضعه الصحي والأخطار المحيطة أن يتوقف عن حضور الدروس في النجف، لكنه تابع الدراسة مع مجموعة سرية من الأصدقاء في بغداد. كان الجزء الأصعب هو العثور على الكتب وشرائها. كان لدى علي في غرفة نومه بالطابق العلوي كتاب ميكافيللي «الأمير» ونسخة حديثة من كتاب ملا صدرا «فلسفة المبادئ والموعود»، وغيرهما

من الكتب، لكن هذا لم يكن كافياً. أصبحت الإنترنت هوس علي، فقد كانت، كما قال، أكبر هدية من بريمر للعراقيين. وكان على مكتبه صورة لآية الله العظمى السيستاني.

تحدثنا في أثناء الليل حول أفكار «ميل» عن الحرية والإسلام والديمقراطية ودور المرأة في الدين والتقاليد، وعن كبار السياسيين العراقيين وعن مكان رجال الدين في الحكومة المقبلة. كانت أفكار علي غير مكتملة: ففي بعض الأحيان كان يقترب من الدفاع عن النمط الإيراني ولاية الفقيه، وفي أحيان أخرى كان يريد فصل الدين عن السياسة. وقد سألتني ألف سؤال، منها: ما رأيي في فيلم آلام المسيح؟ وهل التقيت أي شخص مشهور غير بريمر؟ وكيف أستطيع أن أفترق بين ما هو عمل الحكومة وما هو عمل الله؟ هل سيدع الأمريكيون العراقيين يكتبون دستورهم بأنفسهم؟ كانت مناقشة فريدة ومنعشة؛ لأن علياً كان منفتحاً على جميع الأفكار، فلم يكن هناك شيء خارج الحدود.

كان للاندفاع الشيعي في أثناء أيام شهر المحرم في العراق تأجج وحرارة، رغبة طالما كانت مكبوتة، لكنه لم يكن شهر تسامح. كان الطلاب يهددون عمداء الجامعات إذا أزالوا لافتاتهم، وكان أتباع مقتدى يتصرفون أكثر فأكثر بوصفهم ميليشيا فاشية. وقد شرح لي مرة مصطفى الكاظمي، المغترب الذي التقيته أول مرة في لندن، وكان في شبابه عضواً في حزب الدعوة، أن هذا الانفجار الديني لم يكن فقط رد فعل على قمع حزب البعث، وإنما شكل من العقلية الديكتاتورية نفسها؛ لأن جيل الشيعة الشباب نشؤوا لا يعرفون غيرها. وأنها ستستغرق سنتين أو ثلاثاً لتنتهي، وفي تلك الأثناء سيكون هناك الكثير من المشكلات. أما فيما يتعلق بعلي طالب، فلم يكن يعرف ما يفكر فيه تماماً، لكن طريقة تفكيره كان فيها انتقاد للذات، مع مسحة من المتعة الميتافيزيقية. تحدثنا حتى عن الجنس. فقد أخبرني الصديق المشترك الذي عرفني إلى علي أن علياً كان على علاقة شبه سرية مع أرملة عدة سنوات. يجيز الشيعة ما يسمى زواج المتعة. وهم يستندون بذلك إلى آية من آيات القرآن، ولهذا الزواج جميع قيود الزواج الإسلامي: العقد والمهر ورضا كلا الطرفين وموافقة ولي المرأة ومباركة رجل دين (فهو ليس نوعاً من الزنى).

لكن الفرق أن زواج المتعة مؤقت: فيمكن أن يستمر من ساعة واحدة حتى عشرين سنة، ويتم تجديده بشكل غير محدد. كنت قد سمعت أن في الكاظمية غرقاً يتم تأجيرها لهذا الهدف فقط، وكان لدى الأئمة ألبومات مليئة بصور الرجال والنساء الصالحين من جماعاتهم للاختيار من بينهم. حذرنني علي: «لكن هناك نقطة حساسة إذا كانت المرأة لا تزال عذراء، لا تستطيع أن تجامعها، لا تستطيع إلا أن تلمسها وتقبلها». وفسر لي: «ستكون هذه كارثة لتلك العذراء؛ لأن أباها سيقتلها. ليس الإسلاميون هم من سيقتلوننا، وإنما ستقتلها التقاليد». (هذا القيد غير موجود في حالة الأرملة أو المطلقة). لكن إذا دخلت موقع www.sistani.org وبحثت في تعاليم آية الله العظمى حول طرق ممارسة الجنس (٩)، فستدرك أن آلاف الشيعة الشباب كانوا يمارسون فنون الجنس قبل أن يتزوجوا بالطريقة التقليدية. وصف علي هذه الممارسة بأنها فعل مذهبي من باب الشفقة. «نحن الشيعة لا نريد ممارسة الجنس بشكل حرام؛ لذا فإن لدينا زواج المتعة. إن هذا من باب الرحمة؛ حتى لا يعاني الشاب أو الفتاة بداخلهما، إنه لتسهيل الأمور على الشباب».

طوال المدة التي كنا نتحدث فيها، كانت النساء في الأسرة -والدة علي وشقيقته وابنة عمه وجارته- يطبخن أطباق العيد على بعد خطوات في المطبخ. وكانت النساء الأصغر سناً يأتين إلى الباب بملابس سوداء لشهر المحرم، لكن دون حجاب، وكنّ فضوليّات جداً، وكنّ ينظرن إلى عينيّ مباشرة قبل أن يتراجعن ليتها مسن فيما بينهن ويضحكن. قلت لهن: إنهن جعلنني أشعر كأنني حيوان في حديقة الحيوان. قال علي: إنهن لا يظهرن وجوههن لأحد في البيت في أي مناسبة أخرى، لكن هذا كان يوم عيد، وأنا ضيف مكرم.

أخيراً وقفت شقيقته إبتسام، وهي مدربة كرة طائرة في كلية محلية في الممر، ووجهها خلف العمود، وأشركتني فيما يشبه المحادثة. سألتني: لماذا لم يعد الجنود الأمريكيون بيتسمون ويلوِّحون بأيديهم كما كانوا يفعلون بعد التحرير؟ كانت تريد أن تقول: إنهم بعد سنة من الاحتلال لم يروا منه شيئاً. وقالت: إن النساء يردن حقوقهنّ. «نريد أن يكون لنا دور في الانتخابات».

قال لها علي: «لم يقل أحد: إنكّن لا تستطيعن التصويت».

فقالت إبتسام: «نحن نريد التعليم العالي. نريد وظائف أفضل. ونريد احترام المجتمع». وهنا انسحبت إبتسام؛ لتطمئن على القدر التي تغلي.

قراءة الساعة الثالثة صباحاً، تبعت علياً إلى الدرج الخارجي الذي يوصل من الفسحة السماوية إلى سطح الطابق الثاني. كان هناك نسيم لطيف. وفي الأسفل كان النادمون لايزالون ينشدون من آلة التسجيل ويلطمون. وتحت النجوم وضوء القمر غير المكتمل، كانت الأنوار وأشجار النخيل تمتد عبر المدينة. بدت بغداد كلها مستيقظة؛ انتظاراً للإمام الحسين، وكانت تبدو عن بعد، في هذه الليلة، مكاناً سحرياً. ودّعت علياً قبل حلول الفجر بقليل.

وحين انتهى شهر المحرم ازداد الخطر في العراق بشكل ملحوظ على شخص مثلي. ففي 9 آذار، طارد خمسة رجال يرتدون زي الشرطة العراقية موظفة في سلطة الائتلاف المؤقتة، تعمل مع مجموعات النساء، وزميلة لها ومترجماً عراقياً وأطلقوا عليهم النار حتى قتلوهم على الطريق بين كربلاء والحلة. وقد كنت قبل تلك الحادثة بساعة عائداً إلى بغداد على طريق آخر يبعد أميالاً قليلة. في 15 آذار، قتل أربعة مبشرين معمدانيين بنيران الأسلحة الآلية في الموصل. وفي اليوم اللاحق، قتل مهندسا مياه أجنيان بإطلاق رصاص على طريق جانبي قرب الحلة. وأصبحت جثتهما جزءاً من العمل الليلي لمشرحة د. شاكرو. وقد أعطاني د. شاكرو التفاصيل التشريحية لحالة الرجل الهولندي، ربما على سبيل التحذير: رصاصه كلاشينكوف أطلقت على بعد يزيد عن ستة أقدام حطمت العقب الأيمن؛ وأخرى دخلت من خلف الفخذ الأيمن، فمزقت كيس الصفن وخرجت من الفخذ الأيسر، ورصاصه الثالثة اخترقت الكلية اليمنى مع شظية، والرصاص الرابعة دخلت الجانب الأيسر من العنق، وخرجت مع جزء من الفك السفلي، مما سبب الوفاة.

كنت أقيم في فندق صغير تملكه عائلة في شارع جانبي في حي الكرادة التجاري. وقد كان معظم النزلاء من رجال الأعمال الأتراك والعرب والإيرانيين. وكان الفندق غير الظاهر أكثر أمناً ووداً من الفنادق الكبيرة المحاطة بجدران لصد الانفجارات في وسط

المدينة، التي كانت معروفة بأنها مكان إقامة الصحافيين والمقاولين الغربيين. كانت غرفتي بعيدة عن الشارع، وحددت مكان مخرج طوارئ من نافذة الحمام، وبالرغم من ذلك، كانت الانفجارات التي تنطلق مرتين أو ثلاثاً كل ليلة تجعل النوم أكثر صعوبة. وفي ليلة في منتصف الشهر، نحو منتصف الليل، هزت قبلة انفجرت في مكان ما من المدينة نوافذ غرفتي وجدرانها بمجرد أن غفوت. لم يكن من الممكن تحديد مصدرها أو بعدها، كان صوت الانفجارات يبدو دائماً أقرب من الواقع. حاولت النوم من جديد، لكن دون فائدة، فتناولت ملاسي وخرجت إلى الشارع.

كان حارس الأمن، سعد، الذي يحمل سلاحاً من طراز AK - 47، يقف خارج مقصورته مع المدير الليلي، ظافر. طمأنني ظافر بأن الانفجار أتى من جهة ساحة التحرير، على بعد نحو ميل إلى الشمال. كان كلا الرجلين في الأربعينيات من العمر، لكن كالعادة كانا يبدوان أكبر من ذلك عشر سنوات، وكانا يتقاضيان أجراً قليلاً، ولا يلبسان ما يكفي لتدفئتهما في ليلة باردة. وقد دعواني للانضمام إليهما، وقد كنت أعرف أنني لن أعود للنوم؛ لذا وقفت مع سعد وظافر، بينما كانا يشاهدان فيلماً عن استشهاد الإمام الحسين على مسجل الفيديو الرقمي. بدأ الحديث عن تجاربهما في حرب الثماني سنوات مع إيران.

«لقد دمّرني صدام». رفع سعد قميصه؛ ليكشف عن ندبة طولية سيئة بطول ست بوصات على الجانب الأيمن من معدته، إذ كان قد أصيب في معركة (مجنون). كان الجنود العراقيون يجدون أيدي القتلى الإيرانيين لا تزال متشبثة بمفاتيح دخول الجنة. رأى ظافر أيضاً أحداثاً في معركة (مجنون)، كما في ميادين القتال الأخرى. كان عمله فحص الهواء؛ للتأكد من سلامته، بعد الهجمات التي يشنها الجيش العراقي بالأسلحة الكيماوية التي غيرت مسار الحرب.

سألت ظافراً عن الهدف الذي كانوا يحاربون لأجله، فقال: «لا، لمجرد أن الحكومة قالت لنا أن نحارب». واقتبس كلمات القائد الذي قاد فتح إسبانية في القرن الثامن: «العدو من أمامكم والبحر من ورائكم. لا تستطيعون فعل شيء - عليكم أن تحاربوا». وأضاف: «حاربنا

إيران والآن ها نحن هنا، نتقاضى خمسين دولاراً شهرياً. ضحكا من قلوبهما. كان ظافر، وهورجل عزيز النفس، يكتب لي يوماً موجزاً عن المآسي العراقية بلغته الإنكليزية التي تعلمها وحده. وكان في تلك الليلة يرتدي معطفاً من جلد الخروف أهداه له ضيف كويتي، أما سعد فلم يكن لديه معطف.

انتهى الفيلم الذي كان يدور حول استشهاد الإمام الحسين بالشهادة والرياء. فأخرجه سعد ووضع فيلماً عراقياً خليعاً. كان إنتاج الفيلم سيئاً، لكن سعداً بدا أكثر اهتماماً مما كان عليه في أثناء فيلم كربلاء. قلت له: إن مقتدى الصدر سيعاقبه لو عرف ذلك. فأشار بيده للأعلى. وقال: «الله». هذا بينه وبين الله.

وبعد أن أمضيت ساعة مع سعد وظافر شعرت بتحسّن كبير.

وبعد أيام قليلة، دمر انفجار سيارة ضخمة فندقاً على بعد نحو عشرة مبانٍ من الفندق الذي كنت أقيم فيه. كان فندق م. ت لبنان يناسب وضعي تماماً. خمن العراقيون أن القنبلة انفجرت قبل الوقت المحدد، وأن الهدف المقصود كان أحد الفنادق الغربية. ومع ذلك لم يعتقدوا أن من الحكمة البقاء في فندق لا يحميه إلا سعد وسلاحه من طراز AK. في صباح اليوم اللاحق، لم يطلب مني ظافر أي تفسير، حين كتب لي الفاتورة، لكن كان من الصعب النظر في عينيه، فقد كان لدي شعور بأنني أتخلى عنه.

بدأ الصحافيون الأجانب يدركون أنهم قد يكونون مستهدفين بشكل خاص من بين الغربيين، وهذا أكثر جدّاً من احتمال سوء الحظ الذي يمكن أن يجعلك ضحية انفجار قذيفة هاون ضالة يحدث في أرض مجاورة لهم. ولأن الصحافيين يقضون وقتاً أطول يجولون في شوارع العراق؛ بحثاً عن عراقيين يتحدثون معهم من موظفي سلطة الائتلاف المؤقتة أو المقاولين الفرديين، فقد قرّر كثير منهم أنهم بحاجة إلى مزيد من الحماية، بدلاً من مجرد محاولة التخفي. كان لدى الصحافيين الذين لهم مكاتب في بغداد طريقة لتشغيل مستشارين أمنيين لشراء سيارات مصفّحة، وحتى بناء جدران مضادة للرصاص، وأبراج

مراقبة حول المباني الخاصة. أما أنا فلم يكن لدي مكتب أو موظفون، وكلما ذهبت إلى العراق كان علي أن أجمع فريقاً من سائق ومترجم غالباً من البداية.

قررت أن أوظف حارساً شخصياً. كان الرجل الذي اخترته لهذا العمل لديه خبرة قريبة، ولم يكن يعمل بشكلٍ كافٍ وقتها، بعد أن كان أحد الحراس الشخصيين لصدّام، وبعدها لعديّ. كان عماد حمادي رجلاً قصيراً، عريض المنكبين في الرابعة والثلاثين من العمر وله شارب كبير وعينان مرحتان. كان يمضي أيامه جالساً في بيته في حي القادسية، وهو أحد الأحياء البعثية الحديثة على الضفة الغربية للنهر (كان صدام يحب أن يمنح هذه الأحياء أسماء عربية قومية: فالقادسية اسم معركة انتصر فيها العرب على الفرس في القرن السابع، وأعطى اسمه للحرب العراقية الإيرانية، والأندلس للفتح العربي لإسبانية، والجهاد يشير إلى الجهاد). كان عماد يذهب يوماً أو يومين في الأسبوع ليدير البريد الحكومي الداخلي لوزارة الخارجية، التي كان يعمل فيها قبل سقوط النظام، بفضل ارتباطات عائلية. كان لا يزال يتقاضى مقابل هذا العمل الفخري مئة دولار راتباً شهرياً. حسب ما علمت -وهذا ما سمعته منه ومن عدد قليل من الناس غيره- كان عماد يتعد عن التمرد.

كانت عائلته من العرب السنة، من الفلوجة والمدن الصغيرة في محافظة الأنبار. وكان كل أقاربه قد دعموا النظام السابق؛ فأحد أشقائه كان يعمل في وزارة التصنيع العسكري التي تم حلّها، كما كان يملك شركة تجارية قامت مرة بعمل سريع عبر أصدقاء الحكومة، لكن لأنه لم يكن لديه عقود مع سلطة الائتلاف المؤقتة، فقد أغلق محله في المنصور. وكان أحد أبناء عمومته مهندس ديكور لغرف الضيوف القبيحة في أحد قصور صدام الذي يقيم فيه الجنود الأمريكيون الآن، وآخر كان قد سرح من وزارة الصحة. كان ابن شقيق عماد، وهو ابن ديبلوماسي في البعثة العراقية للأمم المتحدة في نيويورك، يعمل في محل أطعمة فاخرة في بروكلين، حين اعتقله العملاء الفدراليون، بعد الغزو مباشرة، بسبب تأشيرة مخالفة في تفتيش على عراقيين مشتبه فيهم، وسجن أربعة أشهر، ثم تم ترحيله إلى العراق. كانت

عائلة عماد تسكن على بعد مبنى واحد من مبنى صدام الضخم للرعاية والمراقبة الذي سوّته الحرب بالأرض.

في أثناء الأشهر القليلة الماضية لقي عدد من أصدقاء عماد من النظام السابق حتفهم في ظروف غامضة. كان أحدهم، وهو زير نساء سيئ السمعة من تكريت، قد قال لعماد قبل أن يقتل بمدة قصيرة: «ما الذي يحدث؟ لقد انقلبت الدنيا رأساً على عقب». لكن طبيعة عماد كانت أطيّب من أن يعبّر عن أي مرارة. وحين جاء الجنود الأمريكيون إلى الحي يفتشون البيوت، أحرق صورته مع عدي وقصي وعرفات والقذافي، وكانت لتلك الصور قيمة عاطفية بشكل خاص. كان عماد واحداً من آلاف العراقيين الشباب الذين جاؤوا بعد جيل صدام، ولم يكن لهم ارتباطات فكرية، فاستخدموا النظام الذي تحوّل إلى عملية إجرامية للمكاسب والمتع الشخصية. كان عماد في سن علي طالب وبشير شاكر وأخويه تقريباً؛ لم يكونوا يعرفون شيئاً غير حكم صدام بالرغم من أنهم كانوا على جوانب مختلفة من خط أخطائه، وها هو صدام رهن الاعتقال الأمريكي الآن، وقد قبض عليه في حفرة تحت الأرض، إذ يبدو كرجل مشرّد.

ولما كان الماضي أصبح كئيباً جداً، فقد عاش عماد بسعادة في الماضي، حين كان يستطيع أن يفعل ما يشاء، ويخرجه عدي من السجن. كان من السهل إيجاد النساء والخمر، وكانت المشكلات التي يسببهاها يمكن حلّها بشد الخيوط الصحيحة، وكانت العدالة تتحقق ضمن العائلة الكبيرة. وبعد أن ترك الكلية العسكرية في أثناء الحرب مع إيران - حيث لم يكن يستطيع القيام بالتمارين، ولم يكن معتاداً على غسل ثيابه - جعلت الرابطة الأسرية مع سكرتير صدام الخاص عماداً واحداً من آلاف الرجال في القوة الخاصة لحماية الرئيس. كان الخط الأول من الحراس يتكون كله من أقارب صدام الذين يحظون بقطعة من الأرض وسيارة سنوياً، ويتمتعون بسلطة لخلع وزير، أما الخط الثاني فكان من الأقارب الأبعد الذين يستطيعون بمكالمة هاتفية تحريك فرقة عسكرية كاملة. كان مجموع الخطوط خمسة، وكان عماد في الخط الثالث.

كان صدام يبدو في حياة عماد رهيباً، لكنه عادل. قال لي عماد: «حسبما رأيت وسمعت، كان صدام رجلاً رحيماً، لم يكن يعاقب، كان يسامح، وكان يعطي الهدايا. دعني أخبرك بهذه القصة على سبيل المثال، فأحد الحراس على البوابة، كان يراقب حواجز المسامير في الشارع، فرأى صداماً يخرج من القصر، وحين حيّاه داس على أحد المسامير. فوقف صدام وسأله: (لماذا فعلت هذا؟) قال الحارس: (لا أعلم، هذه أول مرة أراك فيها). وكان يبكي طوال الوقت»، فأمر صدام بمعالجته طبياً، وأعطى المصاب مبلغاً من المال وسيارة من طراز تويوتا كورولا. كانت اللقاءات المباشرة لعماد بصدام قليلة، لكنها لا تنسى. مرة بعد ظهر يوم الجمعة كان يتسكّع مع رفاقه خارج القصر بملابسهم الداخلية، حين توقفت سيارتان؛ كان صدام في المقعد الخلفي في إحدى السيارتين. «لم تكن نتوقع حضوره، لم نعرف ماذا نفعل. فوقف وسلّم علينا». توعد السكرتير الأول لصدام، الذي كان الجميع يخافه الحراس بالعقوبة القسوى. لكن صداماً عفا عنهم. فقال صدام: «إنه يوم الجمعة. لم يكونوا يعرفون». وكان من المواقف التي لا تنسى، ما حدث في أثناء القصف الأمريكي لبغداد عام 1991، حيث مكث عماد وعدد من الحراس في القصر الرئاسي، بينما فرّ الآخرون من الانفجارات. فكافأ صدام المخلصين بساعات ذهبية ومسدّسات براونينغ. كان عماد يرتجف خوفاً وكان خوفه من الرئيس أكثر من خوفه من القصف. وضع صدام يده على رأس عماد. «كان حضوره مميّزاً»، تذكر عماد. «كحضور ساحر».

كان عماد يعرف جيداً أن النظام الذي كان يخدمه قتل الآلاف. وقد لفظ مرة أسوأ صفة يمكن تخيلها في العراق على النخبة البعثية كلها: «إنهم مجرمون، أبناء كلاب». لكن كانت تلك هي الحياة التي يعرفها، وباستثناء العقوبة أو السجن لمخالفة أو أخرى، فقد استفاد منه جيداً. أصرّ عماد على أنه لم يرتكب أي جريمة قتل. وأقسم إنه في أثناء الانتفاضة التي تبعت حرب الخليج، قد رفض أمراً بإطلاق قنبلة تعمل بالدفع الصاروخي، على بيت في كربلاء فيه نساء وأطفال، وعوقب بالجلد بسلك وخرطوم مياه. في محادثاتي الكثيرة مع أناس خدموا النظام السابق، لم يعترف أي منهم بأن روحه تأذت، لكنني لم أستطع التأكد من حقيقة ذلك.

قادت تجربة كربلاء القاسية عماداً إلى طلب نقله، فأنتهى به المطاف إلى القوات الخاصة

بعديّ. كان عديّ مصدر تسلية مستمرة خطيرة. أقرّ عماد بحريّة أن عدياً كان مجنوناً، وأن مزاجه كان يتقلب بعنف بين ساعة وأخرى، خاصة حين يكون مخموراً. كان كرمه شديداً كقسوته. حين كانت الأشياء تسودّ في رأس عدي، كان يخرج مسدّسه ولا أحد يدري إن كان سيطلق النار على ضوء في السقف أو على رأس شخص أغضبه. أمضى عماد سنتين في قصور متعة عدي والنوادي الليلية. كانت حادثة بركة السباحة هي التي دفعته لمحاولة ترك الخدمة. وكان هذا شبه مستحيل، لكن بعد محاولات عديدة ووساطات عالية المستوى، سمح لعماد بالتقاعد.

في الوقت الذي استخدمت فيه كان عماد قد تجاوز ربيع شبابه، فقد كان يضع مسدس 9 مم تحت قميص هاواي، وكان بحاجة لتذكير مستمر أن يمشي خلفي ليبقي عينيه مفتوحتين ليس على الفتيات فقط. ومع ذلك، كنت أستمتع برفقته، فوسط جوّ المحرّم الثقيل، كان من المريح التجوال مع مصدر للنكات لا ينضب. كان عماد يشعر بحنين مولع بفساد البعث، وكان ينظر بعدم رضا إلى المدينة -مدينته- التي تغيرت كاملة، إذ كانت جدرانها مغطاة باللافتات السوداء الشيعية، وكان شباب الميليشيات قد سيطروا على شوارعها، وعلى رؤوسهم العصابات الخضراء، وقد تغيرت الأسماء المألوفة لجسورها وأحيائها إلى أسماء دينية. كان عماد غاضباً؛ لأن أحد أصدقائه أوقف في طريقه إلى البصرة عند نقطة تفتيش شيعية خارج النجف، وحين وجد رجال الميليشيا معه صندوق ويسكي في شاحنته، جلدوه أربعين جلدة بخرطوم مياه مطاوي. كان زواج المتعة الشيعي، مصدر تسلية خاصاً لعماد. وقد قال مرة: «اسأل أي شيعي هل يمكنك أن تحصل على أخته شهر فسيجن جنونه». أن تكون مسلماً سيئاً وتقر بذلك أفضل من أن تدّعي أنك مسلم صالح. وقد قال لي عماد في اليوم الأخير لنا معاً: «سيذهب جميع العراقيين إلى جهنم. أعلم أنني سأذهب إلى النار. فلم لا أذنب؟».

كلما ازداد العراق خطورة، زاد اعتمادي على العراقيين الذين كنت أعمل معهم: لأسمع تعليقات عدائية في أحد المطاعم، وأقرّر أنه حان الوقت لدفع الفاتورة والانصراف، وللمرور بنقطة تفتيش للشرطة والتنبؤ بما هو حقيقي وما هو مزيف، ولاستطلاع مزاج جمع من الناس قبل إحضاري إلى الموقع، لإعارتي «جاكيثا» يسمح لي بالاختلاط بالناس. وأخيراً، لم أكن أستطيع أن أقطع الشارع وحدي.

استخدمت عدة مترجمين مختلفين؛ لأنه بعد كل زيارة من زياراتي التي نادراً ما كانت تستمر أكثر من شهر، بعد سفري كان يأخذهم صحفيون آخرون لهم مكاتب دائمة في بغداد، ويكون علي في الزيارة المقبلة أن أجد شخصاً جديداً. كانت المهارات المطلوبة لهذا العمل تتجاوز تحدث الإنكليزية والعربية بطلاقة. فموجة الاختطافات كانت ترفع سعر رأس الغربي، وكان مجرد العمل لدى صحفي أجنبي يشكل خطراً على العراقي (تم تهديد العديد من الموظفين المحليين لدى منظمات إخبارية غربية، كما قتل بعضهم). فقد كانت الثقة المتبادلة شيئاً أساساً في العلاقة بين الصحفي والمترجم، وكذلك توازن القوة. كنت أنا المدير وأنا الذي أدفع الأجر، لكنه كان في بلده، ويتحدث بلغته، وكان رأسي أعلى قيمة من رأسه. كان السائق قيس، الذي عمل معي في إحدى رحلاتي وأظهر إخلاصاً متعصباً، يمزح معي قائلاً: إنني إن لم آت إلى بيته وأتناول العشاء مع عائلته، فسيسلمني إلى الجهاديين.

كنت أعلم جيداً أنني حين أوظف هؤلاء الشباب فإنني أضطرهم إلى الاختيار كل يوم بين أن يقولوا كلمات قليلة تقرب لهم، له صديق في عصابة إجرامية، ويحصلوا ببساطة على عشرة آلاف أو خمسين ألف دولار، أو ألا يقولوا شيئاً. بدا أحد المترجمين الذين عملوا معي مضطرباً بعض الشيء. كان أحياناً يقسم لنفسه حين لا يكون هناك شيء خاطئ بوضوح، وكان يدفع رأسه بشكل لا إرادي للخلف على رقبتة ويتأوه كأنه يعاني ألماً عقلياً. كما أنه كذب علي بشأن العمل أكثر من مرة (لا أعرف أبداً إن كان قيس لم يخبرني، كانت هذه حالة الجهل التي قضينا نحن الغربيين معظم الوقت فيها في العراق). وفي أحد الأيام، توقفت فجأة عن الثقة فيه، ومن تلك اللحظة إلى أن غادرت العراق كنت واعياً لكل فرصة يمكن أن يسلمني فيها الرجل، كل ما كان عليه فعله هو أن يتكلم الإنكليزية بين الناس بصوت مرتفع. لحسن الحظ، غادرت بعد أيام قليلة ولم أره بعد ذلك. لكن بعض مكاتب الأخبار قد وضعت بالفعل رهينة لعصابات من السائقين والحراس، الذين كان معظمهم من الأقارب، ولا يمكن طردهم لما ينطوي عليه ذلك من خطر.

حين يكون بيد أحد طرفي علاقة قدرة على موت الآخر، ويختار بثبات ألا يمارس هذه القدرة، مقدماً تضحية مالية كبيرة، وفي الوقت ذاته يخاطر بحياته لمجرد أنهما يعملان

مماً، فإن الرابط الشخصي يصبح قوياً. لم أغادر العراق مرة دون أن أشعر ببعض العاطفة تجاه الشباب الذين ساعدوا في الحفاظ علي بأمان.

كان أفضل المترجمين في بغداد غير محترفين (فقد كان هؤلاء مرافقين فاسدين في منتصف العمر من النظام السابق) أو خريجي كلية الآداب قسم اللغة الإنكليزية. كان أفضل المترجمين يقومون بأعمال أخرى، وقد وقعوا على هذا العمل بالمصادفة بعد وصول الأمريكيين، أحياناً عن طريق محادثة بالمصادفة مع صحافي في الشارع. كانوا فطنين، وسريعي البديهة، وشجعاناً، وكان عليهم أن يتغلبوا على ضغط التنقل من عالمنا إلى عالمهم. كانوا يضمرون وعياً مزدوجاً، حيث كانوا يترجمون/ يفسرون العراق لنا، بينما ينتمون إليه، ويقبلون أن أيّاً من مقدّسات بلادهم لن تكون مقدّسة، ويشاركوننا في تجديفنا وأحاديثنا عن الجنس، وسخريتنا من المشايخ والأئمة وزواج المتعة، ثم يعودون إلى بيوتهم إلى الأمهات المحجبات اللواتي لا يكدن يفادرن بيوتهن. كان المترجمون طموحين، وكانوا يعرفون أن هذه الفرصة لن تدوم، وتعلّم أفضل المترجمين بسرعة كافية أن يعملوا دون كلل، ولو كانوا مستائين قليلاً من أننا بحاجة إليهم كثيراً، وأنهم لا يحصلون إلا على قليل من المجد. وبينما أصبحت المقاومة أشد دموية، بدأت المنظمات الإخبارية تعتمد على الموظفين المحليين للخروج وإعداد التقارير لهم، أولاً في المدن التي لا يمكن الخروج إليها كالفلوجة، وبعد ذلك، حين بدأت عمليات الاختطاف، في كل مكان تقريباً. وبعد عدة حالات وصلت إلى السرقة الأدبية في صفحات كبريات الصحف الأمريكية اليومية، وما أعقبها من الشكاوى المرة، بدأ العراقيون يحصلون على اعتمادات/ قروض عمل. وقد عوّضوا عما ينقصهم من التدريب بمعرفتهم للشارع ورغبتهم في المخاطرة بحياتهم.

كان أحد أفضل المترجمين الذين عملت معهم طبيباً شاباً اسمه علي. كان نصف سني ونصف شيوعي (كان يسمي نفسه سوشي)، وكان قد هرب إلى اليمن قبل الحرب بسنة حين اشتمت شرطة الأمن رائحة أنه يقوم بعمل إضافي في إعداد نسخ لمطبعة محظورة (كان صدام قد أعلن أن تجهيزات مكتب هولت باكارد Hewlett Packard «يهودية»). عاد علي بعد الغزو، وحفر ليخرج جهاز الطابعة الذي كان قد دفعه في حديقته في صندوق خشبي، وسرعان ما ترك مهنة الطب التي سُمّها، ليتخذ مهنة مفكك، بالعمل مع أفضل الصحافيين

في بغداد ثم تركهم فجأة. كان شيئاً نادراً في العراق، حرّ الروح ومتهوّر، يرغب في تهريب الغربيين إلى الفلوجة في ذروة القتال فيها. كان له صلوات جيدة بالمقاومين، وكان متعاطفاً مع استيائهم من الاحتلال، وكذلك مع المدنيين الذين يعانون في مناطق الحرب. مرة قضينا نصف الليل نتجادل حول: هل كان القاضي الشاب في القضية ضد صدام يجب أن يعدّ بطلاً قومياً أم لا؟ كنت أعتقد أنه يجب أن يعدّ بطلاً قومياً؛ لأنه يمثل القيمة الجديدة للقانون ضد المادة القديمة لعبادة القوة. لكن فيما يخص علياً كان الوقت لا يزال مبكراً جداً. فهذا الرجل كان قريباً جداً للتواطؤ، فخدعة الإذلال كانت لا تزال مقنعة أكثر من مبدأ الديمقراطية. لكن حياة علي فتحت في ظل الأمريكيين. كان معجباً بالجنود الأمريكيين بشكل فردي، وكان لا يكل لدرجة أنه قدّم على منح فولبرايت Fulbright الدراسية التي أصبحت متاحة حديثاً؛ لكي يستطيع دراسة الصحافة في الولايات المتحدة.

اشترى علي بذلة ولبسها للذهاب إلى المنطقة الخضراء لمقابلة الدور النهائي مع موظفي الخارجية الأمريكية. وبعد مدة اتصل بي في نيويورك من هاتفه الخليوي من نقطة تفتيش خارج مركز المؤتمر. كان يائساً. كان أحد الأسئلة: «هل تعد أمريكا محرّراً أم محتلاً هنا؟» أجب جميع المرشحين العراقيين الآخرين الإجابة الأولى، لكن حين جاء دور علي قال: «محتل» وشعر برعشة في أثناء المقابلة. كان متأكداً من أن ثمن صدقه سيكون الحرمان من المنحة الدراسية. لكنه تأثر حين أعطته الحكومة الأمريكية منحة فولبرايت على كل حال. وصل إلى فيلادلفيا مقررراً أن يتعلم كيف يستطيع الأمريكيون القيام بما يتزايد عجز العراقيين عن القيام به: أن يكسروا هويات مجموعاتهم، وأن يكونوا أفراداً، ويعيشوا معاً. كان علي قد أصبح ناقداً حاداً للمقاومين السنّة، والمليشيات الشيعية، واستخدامهم للإسلام.

كان أول مترجم عملت معه في العراق، وأعرفه أكثر من غيره، كردياً سأدعوه سرواناً. كان في الثالثة والثلاثين من عمره حين التقيته في ذلك الصيف الأول، كان كتفه الأيمن نحيلاً بشكل زاوية وكان لديه عادة معذبة بخضه (حدث ذلك مرة حين كنا نسبح أنا وسروان وقيس في بحيرة في السلمانية)، وبه ندبة في جبهته فوق إحدى عينيه السوداوين الكئيبتين. كان يحب أن يشرب البيرة، وأن يشعر بمسدسه من عيار 9 مم في يده والصوت المعدني الجاد الذي يصدر حين يرفع مسمار الأمان (لم أكن أسمح له بحمل سلاحه في

(العمل). كان شكله شديداً وملفوفاً كضابط استخبارات سابق، وقد كان كذلك بالفعل، والنساء يجدن ذلك جذاباً. كان يشعر أنه ولد في البلد الخطأ، وأن حياته القاسية بوصفه عراقياً كانت خطأً.

كان سروان أكبر أبناء زعيم عشيرة قوي في السليمانية، في تلال شمال العراق. كانت أمه تحبه جداً لكنه كان يهاب أباه الذي كان يرى أن المتع كالدراجات والآلات الموسيقية لا تليق بصبي بوضع سروان. كبر سروان وهو يشعر بالحزن، وفي سن الثامنة عشرة وجد هذا الشعور نقطة تركيز أكبر من أبيه. قام أحد أصدقاء سروان بضمه إلى حزب سري صغير: سأل سروان «ما الذي يريدونه؟». فقال صديقه: استقلال الأكراد. كانت مدينة السليمانية مدينة كردية تحت سلطة شرطة الأمن التابعة لحزب البعث العربي الذين كان يسمح لهم بالاعتقال والتعذيب والاختطاف والاعتصام. وفي ثمانينيات القرن العشرين، مع زيادة شدة حرب العصابات في الجبال والحملة البعثية التي دمّرت القرى، ازداد الاضطهاد في السليمانية سوءاً. انضم سروان إلى الحزب، وفي اجتماعاته السرية جرت سياسته في عروقه بسرعة، قال سروان: «كنت مجنوناً»، بدأ يحمل قبلة مخفية، ويحجز الآخرين في غرفته. «كنت مستعداً لفعل أي شيء، كنت مستعداً لأقتل، كان من السهل علي القيام بذلك إذا طلبوه مني، لكنهم لم يطلبوا».

وفي أحد الأيام عام 1989، حين كان سروان في التاسعة عشرة، اقترب منه موظفو أمن يلبسون ثياب رجال الشرطة في الشارع. كانوا لطفاء ومهذبين، لا حاجة أن ينادي عائلته، كانوا يريدون الحديث معه عشر دقائق فقط، فهل يأتي معهم؟ أحضروا سروان إلى مقر الأمن، وكان مبنى إسمنتياً قبيحاً بلون الدم الجاف، يدعى المبنى الأحمر. كان كل من في السليمانية يعرفه، كان الاسم وحده يرعب الناس. وكان الأكراد يختفون في المبنى الأحمر أسابيع، وإذا خرجوا منه، كانوا يخرجون مدمّرين. قال موظفو الأمن لسروان: «لدينا تقرير أنك كنت في منظمة ضد الحكومة. ربما خدعوك، أنت فتى صالح، ونحن متأكدون من أنك شخص عراقي شريف. لكن الحقيقة هي أنك تساعد بعض الأشخاص ضد العراق».

قال سروان: «أنا لا أعرف عن ماذا تتحدثون».

- «بلى، أنت تعرف. هاك ورقة وقلماً، فإذا كنت تريد شياً أو دخاناً فأخبرنا فقط. اكتب ما تعرفه».

- «ليس لدي شيء أكتبه».

- «خذ وقتك».

كان أصدقاء سروان قد أخبروه بأن أي اعتراف يدلي به يعني نهايته؛ لذا لم يعترف بشيء. لم أعرف شيئاً عما حدث بعد ذلك إلا بعد مضي عام على معرفتي به؛ فقد أخبرني سروان قصة حياته في ليلة من الليالي الطويلة في ذلك الصيف الأول دون أن يذكر ذلك. كانت التجربة العادية للشباب الأكراد أن ينضموا إلى الأحزاب القومية، ويعتقلوا، ويواجهوا التعذيب، وقد كان لشخص مثل سروان الفرصة ليسأل نفسه كيف يمكن أن يتحمل ذلك. كان يعرف أن لا أحد يستطيع احتمال الألم طويلاً، لكن أحد أصدقائه الأكبر سناً كان قد أخبره بأن يحرص على البقاء جائعاً في السجن دائماً؛ حتى يغمى عليه بعد البدء في التعذيب بوقت قصير.

كان المبنى الأحمر الذي حوّلته الحكومة الكردية إلى متحف عبارة عن مجموعة معقدة من غرف التحقيق الكثيبة والزنزانات الضيقة، وكان على الجدران رسومات يائسة بالطباشير، تمتد بعيداً عن الشارع؛ حتى لا يسمع المارة ما يحدث في الداخل. وكانت غرف التحقيق خالية إلا من مكتب معدني في الزاوية وكرسي. وكان هناك أنبوب حديدي مكشوف ممدد تحت السقف، مع قطعة من الفولاذ ملحومة حوله بشكل خطاف. أخذ سروان إلى إحدى تلك الغرف. أوقفوه على كرسي ويدها مقيدتان خلف ظهره، ومعلقة فوق رأسه من الخطاف. ركل أحد المحققين الكرسي برجله بعيداً، ثم أمسك بخصره وسحبه للأسفل بقوة، فخلع ذراعه الأيمن من شدة الهزة من مفصله، وغاب عن الوعي.

استمر التعذيب سبعة أيام. كان الأشخاص الذين يقومون بالتعذيب محترفين؛ فبعد كل خلع، حين كان سروان يسقط على الأرض فاقداً الوعي، كان أحدهم يدفع ذراعه ليعيدها إلى مكانها. «كان هذا هو عملهم طوال حياتهم، هذا ما يعرفونه». حاول سروان أن يتقلب على ذلك، كان يقول لنفسه: إن ذلك مؤقت، ستأذى، وسيرعبونك، حاول أن تحتل ذلك،

تحمل الألم، فهو مؤقت، سيكون كل شيء على ما يرام، وبعد ذلك ستسى. كما وجد أن مما ساعده في التغلب على الألم، فكرة أن هؤلاء الرجال أجانب، محتلون، في بلده، يأخذون الأراضي الكردية، ويقتلون القرويين الأكراد. «تعلم أنني كنت أكرههم، وحتى الآن أنا أكرههم، أنا أكرههم، أحياناً حين تكون أمام عدوك، تقرّر ألا تكون ضعيفاً».

بعد أسبوعين، أُطلق سراح سروان. قال موظفو الأمن له: «حسناً، أنت شخص جيد. نحن آسفون، لم نكن نعرف، هناك لبس مع اسم آخر».

في عام 1991، في نهاية حرب الخليج، حين ثار الأكراد والشيعية ضد النظام، كان سروان من بين المقاتلين الذين هاجموا المبنى الأحمر، وقتلوا عشرات البعثيين فيه. كان ذلك أسعد أيام حياته، حتى من السنوات المقبلة، حين ازدهرت السليمانية تحت حماية منطقة حظر الطيران، وأصبحت مدينة مزدهرة حديثة المظهر. أولاً، تزوج بالمرأة الخطأ: فتاة لطيفة جداً، ابنة عائلة قوية سياسياً. كان سروان لا يزال مشتركاً في حزبه الصغير، يقوم بعمل استخباراتي، وحين عرض عليه أصهاره أعمالاً وتأشيرات دخول لدول أجنبية إذا انضم إلى النخبة الحاكمة، رفض. عدّبه موظفو الأمن الأكراد مرة أيضاً؛ وأدت ضربة فوق حاجبه إلى إخراج إحدى عينيه من محجرها، معلقة من العصب. ازداد التوتر بينه وبين زوجته، وبعد ثمانية أشهر اتفقا على الطلاق.

ثم كان هناك أبوه. فبعد طلاقه ازداد الشجار بينهما سوءاً، وأصبحت الحياة في البيت لا تطاق حين ماتت أمه التي كان يحبها أكثر من أي شخص آخر بمرض السرطان عام 1997. وذات ليلة ترك سروان بيت والده، وليس في جيبه إلا ما يعادل أربعة دولارات. قال والده: «إذا خرجت من هذا البيت فستموت من الجوع، فأنت لست معتاداً على الحياة القاسية».

- «سنرى».

ذهب سروان إلى إربل، عاصمة المنطقة الكردية الأخرى، تحت سلطة حزب آخر. كان وحيداً تماماً الآن، وصمم أن يتحدى نبوءة والده، وأن يشق طريقه، وهذا شيء غريب لرجل في نسبه، وشيء صعب جداً في بلد كالعراق الذي يعتمد فيه الجميع على العائلة والعشيرة والعلاقات. مرت به ليالٍ وأيام جوع، كان يعيش فيها على ثلاث قطع يومية من الخبز

والمربي. وكان يدخن سيجارة كل ساعتين. «لم أكن مستعداً أن أخسر. ولم أخسر، لكنني دفعت ثمناً كبيراً. فقد قتلت كل شيء لطيف فيّ. لا فتيات، لا حب، لا موسيقا، لا رحلات. لا سعادة. كل لحظة في حياتي كانت تحدياً».

وبعد شهرين وجد عملاً في مركز للإنترنت، وكان يعمل فيه في شتاء 2003 حين بدأ الصحفيون الأجانب يصلون إلى كردستان قبل الغزو الأمريكي. وظّف صحافيان أستراليان سرواناً مترجماً، وبالرغم من أن لغته الإنكليزية كانت غير دقيقة؛ لأنهما شعرا أنه موضع ثقة وقوي، وأنه من النوع الذي يحب المرء أن يكون قريباً منه في أثناء الحرب.

ذهب سروان إلى بغداد لمتابعة هذا العمل الجديد. لكن العراق المحرر لا يزال العراق، مكاناً مغلّقاً ضيقاً، مصاباً - كما كان يراه - بالإسلام السياسي، وفيه رجال الدين الشيعة والأحزاب الفاسدة، وعلاقات مقيدة بين النساء والرجال. كان في العراق مئة حزب سياسي حر، لكن المشكلة كانت تكمن في عقول الناس. يمكنك أن تغير المعلمين في الصفوف، لكن إذا كان الطلاب مجانيين فلن يتعلموا شيئاً على الرغم من ذلك؛ لذا فهذا سيستغرق خمسين سنة أخرى، وهو ليس مستعداً أن يخسر النصف الباقي من حياته. كان كل ما يريده أن يقع في الحب، لكنه ارتكب خطأً آخر: فقد وقع في حب مراسلة أمريكية، سرعان ما تركته وغادرت العراق. كانت أسيل التي التقاها سروان عن طريق قريبة الروح، وكانت شخصاً نادراً آخر قوي الإرادة، لكن فيما يتعلق بسروان كانت امرأة عراقية تعيش مع والديها، مما يعني أن التفاهم الحقيقي، والحرية الحقيقية، ستكون مستحيلة بينهما.

كان لدى سروان سر خطير: أسلاف يهود. كان ذلك من طرف أمه، قبل أجيال. كانت أمه قد ذكرت ذلك حين كان شاباً، وقد اهتم بالمسألة بشدة. كان بوصفه كردياً يعيش في العالم العربي يتصل باليهود ويحترم إسرائيل التي دعمت القضية الكردية، كان يريد أن يعيش هناك، وأن يتزوج بإسرائيلية وينجب أطفالاً يهوداً. كان هذا أكثر ما يبقيه بعيداً عن العراقيين الآخرين، ومرة، زرنا خاله في السليمانية؛ لنرى إن كان لديه أي سجلات. كان خاله، وهو كاتب كان قد نجا من حكم بالإعدام حين أنقذته ثورة عام 1991، رجلاً مكتئباً يرتدي منامة، وكانت لديه أخبار سيئة: فقد كان النظام قد أحرق جميع الوثائق ذات الصلة بعد عام 1948، حين غادر اليهود العراق بشكل جماعي. معظم أصدقاء الطفولة لخاله في إسرائيل الآن. وقد تحوّل كنيس (معبد اليهود) السليمانية إلى مسجد.

عرّفت سروان إلى بعض المحافظين الجدد الأمريكيين في بغداد، لعلمي أن هذا اليهودي الكردي الذي كان يريد الذهاب إلى إسرائيل سيكون مهماً لهم. لكن القصة كانت ذاتها: فدون وثائق تثبت ذلك، سيكون هذا أمراً صعباً، إن لم يكن مستحيلًا. لذا استمر سروان بالحياة أجنبياً في بغداد. كان لا يزال منقطعاً عن أيه. وكان يفرغ غضبه في العمل، والذهاب إلى أخطر المدن، وقيادة السيارة في الشوارع المتوترة ليلاً. كان يترجم بهدوء حين يدعي عربي أن الأسلحة الكيماوية لم تستخدم يوماً ضد الأكراد، وكان يلتفت إلي في طريقنا للخروج، وعيناه السوداوان كجمر متوهج: «هل سمعت ذلك النذل؟» حضرنا مرة جنازة مع الشيخ عماد الدين العوضي، صافحت فيها أنا وسروان عشرات الرجال ذوي اللحى والشوارب المختلفة. وفي نقطة ما ابتسم سروان ابتسامة شريرة وهمس لي: «هؤلاء الناس لا يعتقدون أننا رجال حقيقيون، لأننا دون شوارب. [توقف] وهم لا يستطيعون ممارسة الجنس إلا مرة في الشهر. [توقف] وماذا سيفكرون في إذا عرفوا أنني كردي يهودي؟» سألته مرة إن كانت ممارسة الجنس عن طريق الفم حراماً في العراق؟ فأجاب: «كل شيء لطيف حرام». في بعض الأوقات كان يبدو أنه في حرب ضد العالم كله، وأنا الوحيد الذي في صفه. كان يتمنى بصراحة أن يطلق مقاوم النار نحوه، كي يكون له حجة في قتاله. وحين طرح فكرة أن بعض المقاومين قد يرون الأمريكيين بالطريقة التي كان يرى بها العرب في السلিমانية - بصفتهم أجنب يحتلون بيوتهم - لم يسمع بذلك. «كانوا يرون أنفسهم أقوياء دائماً. لقد خسروا ذلك. ما الذي يجب على هؤلاء الناس أن يؤمنوا به ليحاربوا من أجله؟ صدام؟ البعث؟ الإسلام؟ لماذا لم يقاتلوا من أجل الإسلام في أيام صدام؟»

كان سروان لا يزال بشكل ما من أبناء صدام، بالرغم من أنه كان على الطرف الآخر. فقد زال النظام، ومرت حياته مع الأمريكيين بتغيير كبير. لكن الأساسيات كانت لاتزال ذاتها، قال سروان: «كانت السلیمانية تشكل لي سجنًا، والآن العراق كلها سجن. أستطيع أن أنتقل من مكان لآخر، وهي سجن كبير».

كانت بغداد مطاردة من قبل يهودها. فوفقاً لبعض الحسابات، حتى برامج أربعينيات القرن العشرين والنزوح الجماعي الذي أعقب إنشاء إسرائيل كان ثلث سكان العاصمة العراقية من

اليهود. ومع نهاية حكم البعثيين، كان عدد اليهود في العراق، أقدم مستوطنة مستمرة في العالم، قد تضاعف إلى نحو عشرين. في جميع المدن الرئيسية، كانت المناطق السابقة لليهود أحياء قديمة، ذات شوارع ضيقة، ومحال تجارية، وشرفات عثمانية خشبية. ويمكن أن تجد كنساً مجهورة، وكان رئيس بلدية مدينة صغيرة جنوب الحلة يراقب ضريحاً لعزقيل عمره 2500 سنة إلى أن عاد اليهود. وكان هناك فجوة أجيال كبيرة بين العراقيين الذين تعرضوا للهواء والنور في العراق قبل البعث، وبين أولئك العراقيين من أمثال عماد وبشير وإخوته وعلي طالب الذين لم يتعرضوا لذلك. وكان من المحتمل أكثر أن يتحدث العراقيون الأكبر سنّاً اللغة الإنكليزية، وأن يكونوا قد سافروا، وأن يكونوا علمانيين. وأغرب ما في هذه الفجوة الموقف من اليهود. فمع القليل من الاستثناءات، يتحدث العراقيون الأصغر سنّاً، الذين نشؤوا على الدعاية المعادية في بلد لم يعد فيه يهود، عن اليهود بوصفهم مجسماً للشياطين. كان المقاومون يسمون الجنود الأمريكيين، والمقاولين المدنيين، وأخيراً كل من يعمل مع الاحتلال «يهوداً».

وذات مرة حين كان أحد شيوخ العشائر السنة يوضح عقليته المنفتحة بإخباري أنه لا يهتم إن كان الرئيس العراقي القادم كردياً أو حتى مسيحياً، سألته باستفزاز: «وماذا لو كان يهودياً؟» فهتف رجل من الحضور: «قواد!» حتى شخص لطيف ويهتم بالروح كعلي طالب كان يعتقد أن اليهود يسعون للهيمنة على العالم. لكن العراقيين المتمدنين في الخمسينيات أو أكثر يحتفظون بذكريات عن أصدقاء وجيران يهود، وتلك الذكريات مفسولة بالمودة. يبدو أن اليهود يمثلون الزمن الذي كان العراق فيه عالمياً، ولم يكن أحد فيه يهتم بمن هو مسلم أو مسيحي أو يهودي، فضلاً عن كونه سنياً أم شيعياً. ذات ليلة، حين أقامت عائلة سائقي حفلة عيد ميلاد لي، جلس والده الذي كان عقيداً متقاعداً في سلاح المدفعية، في غرفة الجلوس ويده على جبهته وهو يفكر بعمق. وفجأة نظر إلى أعلى: «دوريس داي - يهودي؟» وعاد للتفكير بخيبة أمل. ثم قال: «جين كلي - يهودي؟» وأخيراً أكّدت له أن داني كاي كان يهودياً بالفعل، ورضي العقيد.

كان لآلاف العراقيين أسلاف يهود، لكن إذا عرفوا ذلك كانوا يبقونه سراً محروساً بعناية. كان موضوع السكان الذين اختفوا بشكل غامض من العراق محفوظاً بالأسرار والخوف. من بين ملايين الوثائق التي حصل عليها كنعان مكية، كانت أكثر الوثائق حساسية هي ملفات

المخابرات المتعلقة باليهود، وحين زرت منزل والده على نهر دجلة، أخذني مكية في جولة للأرشيف. كانت مجلدات حزب البعث تملأ رفوفاً بثخانة أكوام مكتبة أبحاث. وبينما كنا نمشي في القبو، رن هاتفي المحمول: كانت أسيل. وما إن أجبت، حتى قال مكية: «من هذا؟» كان يريد مقابلتها، إذ كان بحاجة إلى توظيف المزيد من الموظفين للعمل الضخم في فحص الوثائق.

وبعد أيام، أحضرت أسيل إلى المنطقة الخضراء. لم تكن قد دخلت من قبل أسوارها الحصينة، وبينما كنا نسير في اتجاه بيت مكية في الشوارع الهادئة المحاطة بالأشجار على الجانبين، مروراً بالجنود ذوي قصات الشعر القصيرة يهرولون بسرراويلهم القصيرة، والنوافير المفرحة للفيالات التي تقيم فيها المنظمات الأمريكية غير الحكومية، كانت أسيل دهشة، قالت أسيل: «إنها مدينة جديدة بالكامل، إنه بلد مختلف».

جرت المقابلة في قاعة اجتماعات مكية، وكانت الكتب مكدسة على الطاولة. أخبرها مكية عن مؤسسة الذكرى، وسألها عن مهاراتها المكتبية (كانت معرفة أسيل ببرامج الحاسوب تعكس حقيقة أن العراق متخلف عن الغرب بنحو عقد من الزمن)، وأخيراً قال مكية: «إذا عملت هنا فإنك ستسمعين أشياء عني. مثلاً، ستسمعين أنني قد ذهبت مرة إلى إسرائيل».

نظرت أسيل إلى عينيه. لم يكن هذا معتاداً للنساء العراقيات، على الأقل عند الحديث مع شخص مهم. لكنها لم تكن تدعن بسهولة، وقد كان لديها ما تقوله: «أريد أن أحصل على ختم على جواز سفري يقول: إنني ذهبت إلى إسرائيل، فقط لأظهر أن هذا مسموح». ثم روت قصة العائلة. حين كانت في الخامسة من عمرها، أخبرها جدها لوالدتها أن العائلة قد تعرضت في عشرينيات القرن العشرين لهجوم؛ لأنهم يهود. فاختبؤوا في بيت عائلة مسلمة، وقرروا أنه من الأسلم أن يصبحوا مسلمين بدلاً من المخاطرة والتعرض لمزيد من الهجمات. تذكرت أسيل: «حين سألت أبي عن ذلك، طلب مني ألا أكرر ذلك لأي شخص، وقد قال لي: سيكرهك القدامى وسيكرهك الجدد». كان والدها يعني اليهود والمسلمين على السواء. هذا هو السر الذي لمحت إليه أسيل في اليوم الذي التقيت بها فيه. وقد أصبح الحديث عنه الاختبار الجوهري لإمكانية أن تكون أسيل حرة.

كان في الغرفة امرأة أخرى في أثناء مقابلة أسيل، وهذه المرأة هي ولادة الصراف التي كانت في أوائل الخمسينيات من عمرها، وهي امرأة ضعيفة البنية، جذابة، شعرها مصبوغ، وكانت تدخن وترتدي سراويل جينز و«جاكيتاً» جلدياً. كانت هناك مواجهة سوداوية بشأن ولادة. فهي من عائلة صرافة شيعية ثرية في النجف، وكانت في سن المراهقة في بغداد تجمع سجلاً لل... والأحجار وتدور في الدائرة نفسها التي يدور فيها أصدقاء المدرسة الثانوية اليسوعية مثل مكية والفتاة الثرية النشيطة والفتى المثقف من رصيد متواضع. صمم والد مكية الذي كان مهندساً معمارياً بيت الصراف. لحسن الحظ غادر مكية العراق عام 1968، في السنة التي أصبح فيها في سن التاسعة عشرة، وكانت في السابعة عشرة، وفي السنة التي تسلّم حزب البعث السلطة فيها. وبعد ذلك، هاجرت عائلتها، اثنا عشر من الإخوة والأخوات، واحداً تلو الآخر. تزوجت ولادة رجل أعمال وبقيت في العراق. كان لديها ثلاثة أبناء، ونجت من الاضطهاد المتزايد، ومن الحروب، ومن عقد من الحصار الذي دمر ثروة العائلة. أنشأت عاملها المحمي الخاص بها، مهجر داخلي من ألعاب البوكر والصالونات الفنية، حيث يثق الأصدقاء ببعضهم بما فيه الكفاية ليقولوا ما يفكرون فيه. كانت تأخذ أبناءها إلى دروس السباحة وألعاب السكواتش في حر الصيف؛ كي يصرفوا طاقتهم ويكونوا متعبين في الليل فلا يفكرون، ويكونوا متعبين فلا يستطيعون أن يكرهوا النظام، أو أن يغريهم، أو أن يلجؤوا إلى التعصب الديني مثل كثير من الشيعة في سنّهم. قالت لي ولادة مرة: «تخيل الحياة في بلد لا يسمح فيه لأحد أن يتحدث في الدين أو الجنس». عاشت هناك طوال حياتها، تعمل ما باستطاعتها؛ لتحافظ على جو شبابها، بينما كان العراق يتراجع. ثم أتى الأمريكيون وكنعان مكية. وهي الآن تعمل معه في مؤسسة ذكرى العراق.

في أواخر شهر آذار، ذهبت في رحلة مع مكية وولادة إلى كردستان. كان يريد أن يلقي نظرة على قطعة أرض كان والده يملكها في الجبال قرب دهوك، وأن يتحدث إلى موظفي حقوق الإنسان الأكراد حول وثائق من الأنفال، قبل أن يتابع مسيره نحو الشمال؛ ليلقي خطاباً في أنقرة. أردت أن أخرج من بغداد التي كان التوتر يزداد فيها نهاراً.

سافرنا مع صديق كردي قديم لمكية اسمه شيركو عابد وحارسه الشخصي من البشمرغة.

كان شيركو، اسمه يعني «أسد الجبال»، رجلاً مهيباً، ذا شعر أبيض قصير وأنف قوي تحت حاجبين أسودين كثيفين، كان محارباً سابقاً في النضال الكردي، وكان قد عاش في إنكلترا سنوات، وهو يدير الآن شركة للإنترنت في بغداد. وما إن عبرنا الخط الأخضر إلى المرتفعات فوق كركوك، حتى بدأنا جميعاً نسترخي ونرددش بأصوات مرتفعة. كنت أشعر بالضغط يغادر رئتي. وكانت التلال مكسوّة بالزهور البرية الربيعية، وكانت هناك حفلات زفاف في الحقول، وكانت النساء الكرديّات يرقصن بفساتين حمراء وخضراء زاهية وشعرهن مغطى، وكانت العائلات تنتزه احتفالاً بعيد نيروز، السنة الزرادشتية الجديدة. (...).

قال مكية: «أشعر بالأمان هنا».

قال شيركو: «انتظرنا هذا اليوم العظيم طويلاً. أنا لا أشعر بالأسف إلا على الرفاق الذين لم يعيشوا ليروه. الإنجازات رائعة، إنها نهاية التخلف. ليست نهاية صدام فقط، بل نهاية التخلف. علينا ألا نتوقف، علينا أن نتابع النضال ضد التخلف، في المساجد، وفي كل مكان. علينا أن نبدأ بحرب تحرير العراق الحقيقية».

في صباح اليوم اللاحق صحونا في فندق في دهوك، وقمنا بشيء يستحيل فعله في الجنوب: لقد ذهبنا في جولة طويلة سيراً على الأقدام. كان هواء الجبال منعشاً، وكانت البحيرة ذات لون أزرق رائع، وعلى مسافة نحو الشمال كانت هناك قمة جبلية يعلوها الثلج تحدد الحدود مع تركيا. كان من الصعب أن يصدّق المرء أنه على بعد أربعين ميلاً، في الموصل، هناك حرب دائمة. لم يكن هناك شيء نخشاه طالما تبعنا الأثر لتجنب الألفام الأرضية القديمة. مشى شيركوه وولادة أمامنا، وبينما كنا أنا ومكية نتبعهما، أخبرني عما حدث معه منذ عودته إلى العراق.

حين كان مكية وولادة مراهقين، كان كل منهما يحب الآخر، لكن مكية كان خجولاً جداً فلم يصارحها بحبه. وأجبرتها غريزة خاطئة على مغازلة فتى آخر في آخر مرة اجتمعا فيها. فقرر مكية أن ينساها، وأن يترك العراق ليذهب إلى الكلية في أمريكا. حين زارته شقيقة ولادة في كامبريدج بعد سنتين، وجدته مع امرأة إيرانية وكتبت لولادة أنه تزوّج.

لم يكن ذلك صحيحاً، لكن حان دور ولادة لتقع في اليأس وتحاول النسيان. فقبلت عرضاً بالزواج. سألتها زوجها المستقبلي: «هل هناك شخص آخر؟» فأجابت ولادة: إنها كانت تحب مكية، لكنها لا تستطيع الوصول إليه الآن. ظنت أنها ستتعلم أن تحب زوجها، لكن هذا لم يحدث، ولم تتجاوز حبها لمكية. مرّت خمسة وعشرون عاماً، رأى فيها أحدهما الآخر مرتين قصيرتين خارج العراق. ثم عاد مكية إلى بغداد عام 2003 بعد غياب خمسة وثلاثين عاماً، والتقى في حفل عشاء وأدركا أن شيئاً لم يتغير. كان مكية يسير في إجراءات طلاق زوجته الثانية، لكن ولادة كانت لا تزال متزوجة وغير سعيدة. وهما يعملان معاً الآن، ويسافران معاً، وترتبطهما علاقة سرية لا ترضي أيّاً منهما. وحين لحقنا بولادة وشيركوه، قال مكية: إنه قد رأى الشيء ذاته يحدث في أماكن كلبنان: ففي أثناء الثورات التاريخية، مرت الحياة الشخصية للناس بثورات خاصة بهم.

تابعنا التقدم نحو الشمال، إلى العمادية، وهي مدينة عثمانية مسوّرة في أعلى تلة عند سفح سلسلة جبلية على طول الحدود. جلسنا في مطعم مفتوح يطل على وادي العمادية، وخلفه القمم البيضاء الرائعة. كانت عائلات عربية من الجنوب تقضي عطلتها هنا: كنت قد سمعت أن الأطباء وغيرهم من أصحاب المهن من بغداد كانوا يقبلون برواتب أقل ومناصب أقل ليأتوا ويعملوا بأمان في كردستان. وبينما كنا نأكل، شاهدت مكية وولادة، وأدركت عندها أن لهجتها المنطوية الملتوية ورفضها أن تمنحها أفكاره العالية - «لا يعرف كنعان هذا البلد، إنه يظن أنهم يريدون ما يريد» - تعبّر عن نقیض الاستهانة. كانت تريده، لم تكن تريد العراق، لكنها حصلت عليهما معاً، وكان ذلك رهيباً.

أشار شيركوه بيده إلى المنظر بمسحة من يده وشمتم: «تباً للبريطانيين! ألا يستطيعون أن يروا أن هذا ليس العراق؟».

كانت وجهتنا مدينة زاخو الحدودية القديمة التي سيقضي فيها مكية وولادة الليلة قبل أن يعبروا الحدود إلى تركيا. وبينما كنا نكمل الجزء الأخير من الطريق في الظلام، أخبرنا شيركوه عن سنواته الدراسية في بغداد، حين كان شيوعياً وقومياً تركيا. كان ذلك عام 1963، وكان حزب البعث يحاول القضاء على أعدائه، بعد أن استولى على السلطة بانقلاب. تم اعتقال شيركوه وزجّه في السجن، فقد كان للبعثيين كثير من الأعداء، وكانوا

يجمعون الناصريين في زنزانة، والشيعويين والأكراد في زنزانة أخرى مقابلة لها في الممر. احتمال شيركوه سبعة أيام من الضرب والتعليق في الهواء من خصره، ويده خلف ظهره. كان يتوقع الاعتقال والتعذيب منذ أن ضمّه إلى الحركة الكردية شخص أكبر سنّاً اسمه محمد صادق، ووجد أنه قادر على احتمال ذلك. صادق نفسه كان قد اختفى. وفي أحد الأيام، رمى السجّانون جسداً في الزنزانة: هيكل عظمي تقريبا، جلد على عظم، تغطي الدماء وجهه وقد فُتِّت عيناها. قال شيركوه: «كنت خائفاً أن أنظر»، كان شكل الرأس الصغيرة مألوفاً. «كان لدي شعور أنه يمكن أن يكون هو». اقترب شيركوه من الجسد وهمس في أذنه، «سيد صادق، هذا أنت وهذا أنا. أنا شيركوه هنا».

أعطاه شيركوه ماء. كان صادق لا يكاد يستطيع الكلام، لكنه قال بصوت متشائم: «أنا سأموت. وأنا أقول لك: إنني لم أعترف، لم أقل شيئاً عنك أو عن الرفاق الآخرين. لكن ذلك يعني أن حياتك ملك لي. حياتي في يدك الآن. عليك أن تعمل طوال حياتك لما مت من أجله».

جعل صادق شيركوه يكرر القسم الذي كرّره لنا شيركوه بعد واحد وثلاثين عاماً في السيارة: «أقسم بشرفي وشرف كردستان وشعبي أن أبقى صادقاً ومخلصاً فيما أعتقد به، وما أفعله، وأن أبتعد عن أي شيء يجعلني ضعيفاً، وأن أناضل لأنجح في كفاحي، وألا أفصل حياتي وقدري عن فقراء العالم. لن أخاف أحداً على وجه الأرض، ولن أحنى رأسي لأحد، سأنذر حياتي وقدري ومصيري لوحدة كردستان وتحريرها».

في اليوم اللاحق أخذ صادق ليموت، وأطلق سراح شيركوه في النهاية، لكنه غادر السجن ولديه رغبة لا تروى بالانتقام. هذه الرغبة لن تتركه، ولم يكن يستطيع أن يحيا بها. بعد أن طرد البعثيون من السلطة في أواخر عام 1963، سمع أن أحد الذين قاموا بالتعذيب قد اعتُقل. دخل شيركوه إلى السجن ووجد الرجل في زنزانتة، فركله بشدة في معدته إلى أن تدخل السجّانون. لم يرض هذا شيركوه تماماً، لكنه وجد أنه يستطيع أن يعيش من جديد.

قال مكية، الذي كان ينصت باهتمام: «هذا ممتع، شيركوه. أنت لا تحب الضعف في الناس، أليس كذلك، لكننا نحن البشر ضعفاء».

قال شيركوه: «هذا صحيح، أنا لا أحب ذلك».

سألت مكية عن القسم الذي يمكن أن يقسمه إذا كانت حياته على المحك.

قال مكية: «سيكون قسَمي أقرب ما يمكن لفكرة»، تحررية بدأت في العراق وامتدت إلى بقية أرجاء العالم العربي الإسلامي». كان مكية قد دعا إلى هذه الفكرة في جميع كتبه، قال مكية، لكنه الآن متعب من مجرد الكتابة: كان يريد أن يعيشها، هنا في العراق. «الآن لدي مشكلة هنا، كما ترى. فقد أصبحت، بخلاف شيركوه، مدركاً لضعفي بعمق. من الصعب في ظروف كهذه، حين تستقر فكرتك على تصوّر لك لضعفك بوصفك نوعاً من الكائنات، أن تقسم على المثاليات؛ لأن المسلم به هو ضعفنا وعدم قدرتنا على التمسك بالمثاليات المستحيلة».

لم ترضِ إجابة مكية شيركوه تماماً. «جورج، طوال أربعين عاماً، أردت أن أستولي على الآلة التي عذبتني، وأعكس آلية عملها، وأسحقها، ثم أجعلها تعمل لأجلي».

سألته: ماذا يقصد؟

قال شيركوه: «عليك أن تحمي القيم التحررية بهذه القسوة»، وفي ظلمة السيارة كنت أستطيع أن أشعر بقبضته تطبق بإحكام. «نحن نتكلم على الدفاع عن أجيال المستقبل، وهذا لا يمكن أن يتحقق فقط ببعض الشعارات. عليك أن تحميه. لا يمكنك الهرب من ذلك، خاصة في مجتمع كالعراق. من المستحيل أن تهرب. إن لم تحمِ أفكارك التحررية فهذا يعني أنك غير جاد فيها». هذه القسوة تتضمن فرض أفكارك التحررية بقوة، لكنها تعني أيضاً -حسب تعبيره- أن توقف بعض الأشخاص المجرمين عن التنفس (من أمثال مقتدى الصدر)، «وعندها ستجذب كثيراً من الميليشيات، والناس في الأحزاب، والمثقفين، ستجذبهم إلى هذا الزخم ثم توجههم. وإذا عرفوا أن خلف الاتجاه قوة أيضاً، فهناك أمل بعكس هندسة عملية الجنون هذه، التخلف والخروج من هذا التخلف. ليس هناك طريق آخر للقيام بذلك. لكن الآن، في غياب ذلك، يزيد هذا التخلف هنا، وهذه بالفعل خيبة أمل للآلاف، عشرات الآلاف، مئات الآلاف من الناس التحرريين وذوي الأفكار التقدمية في العراق».

بعد أسبوع، عدت إلى بغداد. وقبل مغادرتي العراق بيوم، أغلقت سلطة الائتلاف المؤقتة صحيفة مقتدى الصدر الحوزة ستين يوماً؛ لأنها تحرّض على الهجمات ضد قوات التحالف. لكنه كان استعراضاً للقوة لم يظهر إلا الضعف؛ لأن الأمريكيين لم يكونوا قد استعدوا لما سيأتي. ففي تلك الليلة، خرج الآلاف من رجال ميلشيا مقتدى إلى الشوارع. كان من الممكن سماع أناشيدهم في جميع أنحاء المدينة. كانت ولادة التي عادت إلى بغداد، في طريقها إلى البيت حين مرّت بحشد من الشباب الذين يلوّحون بأسحلة الكلاشينكوف. كان الجنود الأمريكيون يحاولون أن يعوقوا رجال الميليشيات، وبدأ أنهم خائفون جداً، كما شعرت. وضعت ولادة غطاء على شعرها بسرعة، وتدبّرت أمر الوصول إلى البيت، حيث تم الإمساك بها. وكانت تلك هي الليلة الأولى لتمرّد استمر نحو شهرين. وفي النهاية تحوّل الكثير مما كان الاحتلال يحاول تحقيقه في العراق إلى أنقاض.

